بائع الأحلام المتجول
رواية
منى سليمان
الطبعة الثانية

بائع الأحلام المُتجول

رواية

مني سليمان

الاهـــــــداء

إلى الوطن الذى يسكُننا .. ويؤلمنا صمته أكثر مما تؤلمنا كلماته

بائع الأحلام المتجول

بائع الأحلام يسكن كُل واحد فينا . من منا لا يُريد أن يحيا بما هو أفضل. كلنا نرقص على حافة الأحلام, ننام على كف المُنى ونتدثر الحرير ..

كم من شاب يهوى السفر فى غربة لجمع المال, وكم من أنثى تمنت أن تجد رجلها الذى يُشعرها أنها إمرأه وكم من موظف يحلم بترك الوظيفه الميرى ليكون رجل أعمال ناجح .

كلُنا أحلام .. ومن لا يحلم فـليبحث عن قبر يؤويه أو ليصمت فى ذهول الواقع, ثم يبكى على حاله ويقول هل من مزيد ؟؟

هل تعتقد أن حياتك سعيدة حافلة .. !

أحياناً نقضى العمر فى ذلك الوهم حتى يظهر فى حياتنا من يُرشدك للفراغ فى روحك, يكون مرآتك التى تُريك الغائب لا الحاضر .. شخص يُكمل روحك

قد يكون ذلك الشخص حبيب أو صديق أو طفلا يحتاج منك العنايه ..

هذا الشخص هو من يجعلك تُغير كل مفاهيمك, تمزق قاموس حياتك, تختلف معه دلالات الكلمات .. فالسعادة تغيرت, والشقاء اختلف, والوهم قد يبدو حقيقة, والحقيقه تتحول الى أوهام.

شخصٌ لا تعترض على كلماته ولا تُجادله ..

بل تمتثل لمشيئته بسعاده, فتنطلق معه فى رحله روحيه لا يُدركها ولا يفهمها المُحيطين بك. يتعجبون منك .. فهم يروا من تُحب بعيونهم لا بعينيك أنت التى أحبت هى حاله لا يمكن تفسيرها .. لكن الحب هو ما يفسر كل شئ.

"اختر الحب .. الحب !

فمن دون حياة الحب العذبه

تُمسى الحياة عبئاً ثقيلاً .. كما ترى."

مولانا جلال الدين الرومى

الفصل الأول

"عزة"

كانت عزة تجلس كل مساء أمام التلفاز, وقد خفضت صوته حتى تدع المجال لأولادها الأربعه لإستذكار دروسهم.

تجلس كـتمثال من الشمع لا تسمع ولا ترى شيئاً مما يعرضه التلفاز, تلتقط أذنيها بعض الكلمات من البرنامج الحوارى.

كان البرنامج يتحدث عن مصر وتحديات المستقبل والتأخر الذى أصاب المجتمع ..

تسرح قليلاً ثم تعاود الإستماع فتجد المذيعة تكرر نفس الكلام .. تُغير القناه فتستمع الى برنامج حوارى أخر يقدمه رجل هذه المره, لكنه يتناول نفس الموضوع, والضيوف هم نفس الضيوف وكأن هناك سياره تنقلهم من قناه الى قناه أخرى !

كان أحد الضيوف يُبشر بثورة للجياع ويقول :-

"إن الخوف من الشر أقوى بكثير من إحتمال الخير, كـأساس للأفعال الإنسانية"

سألته المذيعة : – ماذا تعنى ؟

أجاب : – يعنى بالبلدى لو خرج سكان العشوائيات فى ثوره .. فلن يعلم نتائج هذه الثوره إلا الله.

أدارت عزة المحطة ..وهى على يقين من قدوم موجه ثورية شاملة, فلن تستقيم الحياة فى مصر هكذا.

سمعت ضيف أحد البرامج يقول :

– إذا ارتفع أى شخص فوق القانون فقد ضاعت العدالة

كانت كل دقيقتين تدخل المطبخ لتطمئن على الطعام الموجود بالفرن .. كانت رائحة الكيك بالشيكولاته تملأ المطبخ.

كان التلفاز مجرد وسيلة للهروب من واقع أنها لا شئ, مُجرد خادمة أو مديرة منزل ..

لم يخذلها الملل يوماً...

مُجرد داده أحضرها زوجها لتربية أولاده, فكبروا ونسوها.

مُجرد رحم أودع فيه أولاده فى لحظات مُزج فيها الألم بالخجل باللذه .. ثم إنتهت تلك اللحظات.

أما أولادها فكانت بالنسبه لهم كالدُمى والملابس القديمة والدراجة ذات السنادات, أصبحت مُجرد ذكرى يبتسمون حين يرونها.

زوجها دائماً خارج المنزل .. يسهر مع أصدقائه, وحين عودته يجلس فى الصالون كأنه ضيف

كان دوماً يعتبر نفسه ضيف فى هذا البيت, فالضيف يجب إكرامه ومساعدته .. له كل الحقوق والإمتيازات, وليس عليه أى إلتزامات.

يجلس فى الصالون لتصفح الجرائد, لا يكلف نفسه عناء الإبتسامة .. وعندما يُريد أى شئ يناديها باسم ابنتها الكبرى ..

(يا إيمان الشاى . أو يا إيمان حضروا العشاء)

قبل أن تولد إيمان كان يُنادى أمه, وكأن إيمان أو حتى أمه هى من كانت تُلبى ندائه وتقوم بخدمته.

كانت عزه تعاتبه كثيراً وتسأله ..

– لما لا تتحدث معى وتشاورنى ؟؟

ينظر إليها ولا يرد .. يعاملها حقاً بكل إحترام وتوقير, لا تذكرأبداً أنه رفع صوته أو عنفها على أى شئ .. دائماً هادئ صامت.

كانت شقيقتها هيام تُلقبه بـ الرجل الغامض .. فتنهرها عزه.

فتقول هيام :- فعلاً شبه حسين فهمى فى فيلم خلى بالك من زوزو .. إنتى يا أبله لازم تغنيله ياواد يا تقيل ☺

يقول داوود الأنطاقى:-

"العشق فضيله تُنتج الحيلة, وتُشجع الجبان, وتُسخى كف البخيل, وتصفى زهن الغبى, وتُنطق بالشعر لسان الأعجم, وتبعث حزم العاجز الضعيف"

هل يندم الإنسان يوماً أنه عاش حياة مستقيمة ليس بها حُب ولا عواطف ؟

هل تندم المرأة لأنها لم تتعلم الكيد ولم تتعلم كيف تكون إمرأة تستولى على قلب رجل .. ولا سيما قلب زوجها ؟

ألا يكفى العطاء والتفانى والتضحية ؟ فلم تطلب منه يوماً سوى الإهتمام.

لم تتوقف يوماً لتسأل نفسها .. هل كان ماهر يستحق كل مامنحته له من حب وحنان وإهتمام ؟ وهل هى تستحق أن تهب على حياتها معه أى نسمة حب, برغم الثمن الباهظ الذى منحته عن طيب خاطر !

الخلاصة أن عزه أحبت زوجها وأعطته كل مخزون العاطفة وسامحته على كل شئ ومنحته بيتاً هادئاً مُرتباً وأربعة أولاد أذكياء متفوقين

أما هو فلم يتحمل يوماً أى مسئولية تجاهها أو تجاه أولادها, لم يذهب معها يوماً بأحدهم لطبيب, ولم يُذاكر يوماً لأى منهم

كان لا يحتمل بكاء إيمان, فتحملها وتخرج بعيداً عنه حتى يستطيع النوم.

وينزعج من شقاوة محمد ومصطفى, فتحبسهم فى حجرتهم وتجلس معهم.

دائماً البيت هادئ, منظم, نظيف.. ملابسه نظيفة مرتبة بعنايه

تمرض فلا تُخبره بمرضها .. لأنه سيعتبرها متمارضة ولا يهتم بها

أما عندما يمرض هو .. تتحول حجرته لغرفة مشفى .. وتتحول هى لممرضة تنظم مواعيد الدواء وتأخذ أجازه من عملها, ولا تذهب لمتجر الأسرة الذى تديره بعد وفاة والدها .

برغم أن راتبها من عملها ونصيبها من أرباح المتجر يمثلان كل مصروف البيت

أما راتبه هو.. فيعطيها نصفه, ويحتفظ بالنصف الأخر لشراء الكُتب والسجائر.

فى البداية كانت تدخر نصف الراتب الذى يعطيها إياه, وعندما كبُر الأولاد .. دخل راتبه أيضاً ضمن ميزانية البيت.

فى بداية حياتهم الزوجيه كانت تشعر بالغيرة فتشك فيه .. وكأى امرأة عندما تشعر بالغيرة

كانت تنقلب الموزين ويتغير الطقس وتُعلن الطوارئ, ثم تهدأ الدنيا إذا قال لها راجلها أنه لا يعرف غيرها ولن يهرب منها, وأنها هى الحاكمة ومالكة قلبه الوحيدة, ولا ترى عيونه غيرها .. وأنه باع سيفه وفرسه يوم أن أسكنته قلبها.

كانت دوماً تمنحه إبتسامة عذبة حالمة وتخبره أنها تصدقه, لكن فئران الغابة لا تزال تلعب فى صدرها, وطيور البوم تنعق وتُنادى احذرى احذرى ..

بعد مرور الزمن هدأت غيرتها وإرتاحت نفسها, فزوجها فعلاُ لا يعرف إمرأة غيرها, ولكنه لا يعرفها أيضاً ..

لا يعرف أن النساء تُحب أن تتحدث فى التفاصيل البسيطة وتركز عليها, أما الرجال فلا يهتمون إلا بالعناوين الرئيسية

انتبهت على صوت زوجة البواب تصرخ بينما كان زوجها يضربها ..

كانت هذه الخناقة هى تسليتها الوحيدة .. وضعت شالها الصوفى فوق كتفيها ونزلت السلم وهى تفكر, كم تمنت أن ينفعل زوجها مرة أو حتى يضربها ..

عندما نزلت السلم, سمعت ضحكة نبويه ترتفع وهى تحتضن زوجها قائلة :

– لا مش زعلانه ياعباس, دا ضرب الحبيب زى أكل الزبيب.

– بس لو شفتك لبستى الجلابية دى مرة تانية والله لأمسح بيكى سلالم العمارة

– انت عارف أنا بلبسها ليه ؟

– ليه ياوليه ؟

– علشان تغير عليا ☺

– آه يابنت المجانين

فهمت الأستاذة عزة الدرس وتعلمته من زوجة البواب .وقررت أن تطبقه عملياً وليتها لم تطبقه .

الفصل الثانى

رجل عملى

صعدت سلالم البيت وهى تُفكر كيف تجعل زوجها يغار عليها أو ينتبه لوجودها فى حياته.

فتحت دولاب الملابس وبحثت عن ثوب يُعجبه, لا تذكر أنه مرة أثنى على أى ثوب من ثيابها.

كانت دوماً تسأله :- ألا أُعجبك؟ ألست جميلة فى عينيك؟

فيقول لها : - بل تُعجيبننى كثيراً, أنت جميلة وطيبة.

فتقول: - ولما لا تُخبرنى بذلك؟

فينظر لها ويبتسم قائلاً :- أنا لا أعرف كيف أتغزل بكِ, وأنت تعلمى أننى أحبك ومُعجبٌ بكِ, أنا رجل عملى.

- عملى كيف ؟ ماهى التصرفات التى تُعبر عن حُبكَ لى؟ أخبرنى.

– عندما تزوجتك يا عزة إخترتُكِ بعقلى وإعتبرتُكِ أخر إمرأة فى الدنيا تَصلُح للزواج.

– الشئ الوحيد اللذى قدمته لى هو الإخلاص, ليتك قدمت معه بعض الحب والشفقة والإهتمام.. هناك الكثير من الأشياء التى نحصُل عليها بالمجان .. إلا الإهتمام فلا نحصُل عليه إلا بثمن باهظ.

فينفعل ويغضب رافعاً صوته..

– هل كُنت تريدين شاباً تافهاً يُسمعك كلمات الغزل ليل نهار ! أنا رجل عملى ياهانم.

تصمت عَزة...

صمتت طويلاً حتى صار الصمت رفيقها ومؤنسها وأحد أهم أصدقائها

الصمت وحده القادر على تحفيز الأصوات بداخلنا , أحياناً يصرخ الصمت وأحياناً يبكى ونادراً ما يضحك.

أما صديقها الثانى فهو الشعور بأنها ضحية وأن لا شئ بيدها, كان هذا الشعور يُريحها .. فهى مُجبرة وليست مُخيرة.

أهم أعدائها الشعور بالذنب .. لم تشعر يوماً أنها أذنبت فى حق أى شخص من المُحيطين بها, لكنها بالتأكيد أذنبت فى حق نفسها.

يحتاج الإنسان أحياناً إلى القليل من الأنانية والعناد حتى يشعُر بإنسانيته ويشعر به من حوله ويأخذ بعض حقوقه.

فقد خضعت لوالدها وتركت حلمها فى أن تكون مهندسة, وأذنبت فى حق نفسها حين خضعت لأنانية ماهر وقبلت الحياة الباردة.

شعرت بطعم اليأس فإمتلأ فمها بالمرارة ..

عاشت شابة مثالية , وحين كبُرت ندمت على الأخطاء التى لم ترتكبها .

قرأت يوماً أن لكل شخص منا هالة تُحيط به .. تُرى ما لون هالتها؟

بالتأكيد ليست براقة ولا مُشرقة, فلا يوجد شئ براق ولا مُشرق فى حياتها.

لون هالتها سيكون بلون جُدران هذه الغرفة وبلون ملاءتها .. اللون الفيروزى الباهت.

رأت ثوب زفافها الأبيض فى رُكن الدولاب وكأنه بتوارى منها خجلاً .. هذا الثوب الذى كانت تحلُم طيلة عمرها بإرتدائه .. ماذا جلب لها إرتداؤه ؟!

خلعت طرحتها وفردت شعرها على أكتافها وبدأت تمشطه وتعاتب نفسها على تركها للشعر الأبيض يغزو رأسها بدون إستحياء

وقفت أمام مرآتها تسرح الشعر وتضع العطر, تسائلت ماذا حدث لها وكيف تبدلت ! إستيقظت جميع حواسها وإختلجت العروق ..

أهكذا تبدلنا الأيام, تهيم الأفكار فى رأسها, التى تأوى حياة وكراكيب وأحلام تبحث عمن يحققها.

كما تولد اللحظات وتموت, تولد الأفكار وتتغير وتموت .. وهنا تظهر التجارب والخبرات الجديدة وتموت القديمة. فنحن نتغير حتى وإن لم نلحظ ذلك.

رأت صورتها معكوسة فى المرآه .. قارنت بينها وبين تلك الشابة ذات الشعر الكستنائى والعيون العسلية والنظرة الهادئه والإبتسامة الظافرة فى صورة زفافها المُعلقة على يمين المرآة.

لم تعُد هذه تَمُتْ لتلك بأية صلة, تلك المرأة فى المرآة, لا تقدر أن تستوعب قسماتها.

نظرت لصورة زوجها أيضاً, كان نحيلاً وسيم القسمات .. الأن زحفت على رأسه عوامل التعرية, إبتسامته تلك التى كانت تعشقها, أسنانه البيضاء طمستها السجائر والقهوة

بالتناوب .. وجهه الذى زحفت عليه التجاعيد, كرشه الذى إقترب من ركبتيه.

كيف لم تلحظ تغير مظهره طيلة تلك الأعوام؟ هو بالتأكيد لم يتغير فجأة.

أراحت جسدها فوق الفراش ذو الملاءة الفيروزية الباهته, مُنذ طفولتها وهى ترى أحلاماً كثيرة, وكانت دوماً تتحدث مع الله .. وعندما تشعر بالحزن تفقد شهيتها للطعام .. لكنها إعتادت ألا تحكى مشاعرها وأحلامها لإحدى شقيقاتها.

كان همهن اللهو والصخب, كُن دوماً فرحات يشعُرن بالإستخفاف كلما حكت لهم أى شئ, كانت تشعر دوماً أنها مُختلفة عنهن, كبطة وُلدت وسط الدجاجات .. تُجيد

السباحة الفكرية .. لذا قررت أن تسبح فى بحر العلم ولا تكتفى بالبيت.

أمها كانت مشغولة دائماً, فهى تخدم أسرة مكونة من عشرة أشخاص, وصحتها أنهكت بكثرة الحمل والإنجاب.

عادت عزه إلى نفسها وقررت عمل خطة ..

أول قرار .. فى الصباح ستُحنى شعرها, وتحاول أن تعمل ريجيم, وتشترى ثياباً جديدة .. ولكن كيف ومن أين؟ تحتاج ميزانية ضخمة.

فكرت قليلاً ثم قالت لاتوجد مشكلة, سأقوم بعمل جمعية مع زميلاتى,

فأنا أحتاج أن أشعر أننى لا أزال أنثى, وأننى لا أزال على قيد الحياة.

لا يمكن للمرأة أن تشعر أنها إمرأة إلا إذا كانت جميلة, وكل إمرأة بأشياء بسيطة جداً تستطيع أن تُظهر علامات أنوثتها.

ألم يصف رب العزة – سبحانه وتعالى – النساء بقوله:– "أفمن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مُبين" .. فهى طبيعة المرأة, إذا تركتها وإخشوشنت وتشبهت بالرجال, فذلك شُذوذ عن الفطرة السليمة.

تخطت عزة الخامسة والأربعين, لكنها لا تزال جميلة .. ولكن كيف وإلى من ستلجأ لشراء الملابس.

الفصل الثالث

"إيمان"

دخلت حجرة إيمان وهى تجُر خلفها خجلاً وحياءً لا يفارقنها, ولا تعرف كيف تُفاتحها فى الأمر.

وجدتها تُحدث صديقتها فى الهاتف ...

– ماما عاوزه حاجة ؟

– أيوه يا حبيبتى عاوزه أتكلم معاكى.

– خير ؟

إبتسمت عزه كعادتها حين تشعر بالخجل وقالت :

– عاوزه أعمل نيولوك ☺

– تعملى إيه ياماما ؟! إنتى بتهزرى ؟ أنا مش فاضيه.

لو سمحتى إقفلى الباب وراكى.

كانت إيمان مشغوله دائماً بدراستها, جريئة فطنة برغم فظاظتها, لا تدع أى خطأ يمر دون إبداء مُلاحظة .. تتحدث على الفور.

لم تكن تراوغ فى الموضوع أبداً .. كان صدقها يُثير حنق الجميع, ويجعلهم يشعرون بالإهانة.

لكنها كانت تُحب إستفزاز الأخرين .. لترى ما يمكن أن يبدر منهم فى لحظات الغضب.

تحب الإمتلاك والخصوصية, أنانية وفضولية ويمكن أن تكون هذه الصفات هى التى أوصلتها للتفوق, فهى ذكية متفرده , تحدد هدفها وتسعى لتحقيقه ولا تُضيع الوقت.

شعرت عزه بالإحراج .. وجدت إبنها محمد خلفها يبتسم هاتفاً :

– فى إيه يا ست ماما؟ نيولوك يبقى معاكى فلوس .. أنا عاوز تيشيرت.

وجدت أبنائها حولها .. كل واحد يطلب منها شئ , كانت تشتاق إلى صخبهم وثرثرتهم التى تُغطى على الصمت الذى يُثقل حياتها مع ماهر.

قلت الثرثرة والصخب مع مرور الأيام .. فالدراسة فى الثانوية العامة وبعدها الجامعة كانت حملاً ثقيلاً على أكتافهم.

فقد ربتهم جميعاً وغرست فى نفوسهم حب العلم والتفوق والإعتماد على النفس, ولم تكن أبداً تمل من طلباتهم .. بل كانت تُشفق عليهم.

إنتبهت عندما خرجت إيمان من حجرتها تنهرهم وتطلب الشاى وخرج ماهر ليطلب تحضير العشاء.

تركتهم ودخلت المطبخ لتحضير العشاء والشاى وبدأت تفكر فى حياتها .. شعرت بوحدة شديدة ووحشة ومرارة تجتاح نفسها المنهكة, هى صامتة دوماً لأنها لا تجد من تُحدثه.

أَضحت خرساء, أرادت دوماً أن تتحدث فى بساطة كالطير فى الفضاء والأسماك فى البحار,

تريد الحديث عن قطتها الصغيرة, عن آنية الأزهار, عن الحب عن الأشعار, عن هطول الأمطار, عن ستائرها المنقوشة, عن ثوبها الجديد, عن حبها الوحيد. هل هى أشياء تافهة؟ وهل تكون إمرأة سطحية ؟

فبرغم عمرها ومركزها كمديرة مدرسة .. إلا أنها إمرأة كباقى النساء, تفرح جداً بالحديث عن هذه الأشياء.

لا يمكن أن نعبر بالصمت عن أشياء تحتاج للكلمات, لأن مُعظم الناس لا يفهمون لغة الصمت.

طردت هذا الخاطر سريعاً كما تطرد سرباً من النحل يُذكرها بأنها ليست ملكة النحل كل مهمتها الإنجاب,

حين رأت ملكة النحل فى المعمل, ضخمة الحجم بطنها كبيرة .. يالها من مسكينة ضحكوا عليها بكلمة ملكة حتى جعلوها تتحول لآلة لوضع البيض ورعايته حتى يفقس ثم تنتهى مهمتها.

كانت تُخرج الأطباق من الثلاجة وتبدأ فى إعداد السندويتشات وهى تفكر فى أنها تُشبه ملكة النحل فى

أشياء كثيرة .. إلا أن ملكة النحل لم تكن تشقى فى حياتها مثلها , فملكة النحل كل مهمتها وضع البيض والعناية به حتى يفقس .. ثم تترك كل شئ للشغالات .. فسكان خلية النحل لكل منهم دور مُحدد.

الذكر تنتهى مهمته بمجرد تلقيح الملكه وهناك الشغالات والحارسات والعاملات , لكل فرد من أفراد الخلية مهامه .. أما عزه فعليها كل المهام , الحمل والولادة والرضاعة ورعاية البيت والزوج والأولاد والإهتمام بحماتها وبوالدها ووالدتها عندما كانوا على قيد الحياة.

وهناك عملها بالمدرسة والمتجر, وحتى تنجح فى كل ذلك كان عليها أن تتحول إلى نحلة. لذا قلت ساعات النوم إلى أربع ساعات فى اليوم والليلة, ويتبقى لها عشرون ساعة تقوم بتقسيمها .. خمس ساعات للمدرسة, وثلاث ساعات للمتجر,

وساعتين للمواصلات, يتبقى لها عشر ساعات يومياً تقضيها فى بيتها.

كل شئ مُخطط له .. تقوم بعمل جدول لكل شئ .. بل أكثر من جدول, هناك جدول للأعمال اليومية , وجدول للأعمال الأسبوعية, وجدول للأعمال الشهرية

الجدول اليومى .. لإعداد وجبات الطعام, والترتيب الخفيف للبيت, وتختار حجرة كل يوم لتقوم بتنظيفها تنظيفاً عميقاً.

أما يوم الجمعة فهو يوم إجازتها من المتجر والمدرسة فتقضيه فى شراء لوازم البيت وتجهيزها على حسب أيام الأسبوع.

أما الجدول الشهر فهو مُخصص للأعمال الكبيرة, كـغسل السجاد والحوائط. فميزانيتها لم تمكنها من الإتيان بخادمة.

وكانت أيضاً فيما مضى تُخصص وقتاً للإهتمام بنفسها, وتحرص كل الحرص على إعداد ماسكات لبشرتها وشعرها, وتشترى ثياب غاية فى الأناقة والبساطة ولا تهتم لأمر الموضة, فهى ترى أن الموضة شئٌ بشع لدرجة لا يمكن تحملها, لذا يغيرونها كل ستة أشهر.

هناك وقت مُخصص للعبادة, فهى حريصة على ورد الأذكار اليومى , وتختم القرآن مرة كل شهر وتحرص على قيام الليل.

أدت فريضة العمرة مرتين ولكنها لم تذهب للحج.

وهكذا إستطاعت عزه أن تُدير أمور حياتها, فكان بيتها مثالاً للهدوء والنظام والترتيب.

أما الأمور المادية فكان مُخطط لها أيضاً .. فقامت بإعداد ميزانة لكل شئ لمصروف البيت

ميزانية أسبوعية وشهرية, وميزانية كل ستة أشهر, وميزانية سنوية.

الميزانية الأسبوعية .. لشراء طعام الأسبوع .

والشهرية لشراء البقالة ولوازم النظافة.

والميزانية الخاصة بالستة أشهر .. فكانت لملابس الصيف, ومعها مبلغ لقضاء بعض الأيام فى أحد المصائف. وفى الشتاء لدخول المدارس وملابس الشتاء.

هكذا كانت حياتها مُنظمة مُرتبة ومستعده لكل شئ, كل شئ مُخطط له بدقة.

كانت مُتمكنة من الأمور كلها وناجحة فيها, كالأمير الذى لعنته إحدى الساحرات ..

"يُحكى أن أميراً صغيراً منحته ساحرة ماكرة لعنة أن يصبح موهوباً فى كل شئ .. فأصبح موهوباً فى الرسم, والشعر, والموسيقى, والقتال, لكنه لم يتمكن من النبوغ فى أى موهبة من مواهبه .. لأنه شتت نفسه فى أكثر من شئ"

كذلك عزه كانت موهوبه فى كل شئ, ولكن موهبتها كانت متوسطة.

كانت مثال حى لما قاله (لامارتين)

"إن الله وضع نبوغ المرأة فى قلبها, فمنه تُصدر براعتها وصدق نظرها وقوة حُجتها"

كانت أهم هواياتها إعداد الطعام .. تُخرج كل طاقاتها وإنفعالاتها فى إعداد الطعام, تخترع أصنافاُ جديدة وشهية .. ثلاجتها مملوءة ومائدتها عامرة بما لذّ وطاب, تعتبر نفسها مسؤولة مسئولية تامة عما وصل إليه كرش ماهر .. فقد كان مُحباً لأصناف الحلوى.

أحياناً تعتقد أن سبب إستمرار ماهر فى الإرتباط بها هو إدمانه لطعامها الجميل, فهى تعرف جيداً أنه لم يحبها يوماً.

أبقته وإحتفظت به فقط حين وفرت له أسباب الراحة, لكنها عادت تسأل نفسها .. هل كان يستحق؟ هل كان حريصاً

عليها كما كانت حريصةً عليه؟ هل لو تمردت يوماً أو قصرت هل كان سيستمر معها؟ .. لم تعرف أبداً إجابة ذلك السؤال, لأنها ببساطة لم تقصر يوماً ولم تتمرد أبداً

كانت ملكة النحل والشغالات .. بل كانت خلية نحل كاملة, كانت دائماً مُتعَبه لكنها كانت راضيه, أما الأن فلم تعد راضية.

إعتادت أن تُكرر بعد كل أذان .. "رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد – صلى الله عليه وسلم – نبياً ورسولاً" ولا تزال تُكررها لكنها لم تعد راضية كما كانت.

وإعتادت أيضاً أن تُسبح الله ثلاثاً وثلاثين, وتحمده ثلاثاً وثلاثين, وتُكبر الله ثلاثاً وثلاثين مرة .. كما أوصى النبى – صلى الله عليه وسلم – إبنته فاطمة حين طلبت خادماً يُعينها

فى بيتها, فأوصاها النبى – صلى اله عليه وسلم – بذلك حتى يُعينها الله على أداء أعمالها المنزلية, لكن كيف أمضت كل هذا العمر معه بدون وهج, بدون الشغف اللازم لإستمرار الحياة.

أفكارها تحولت لأزيز نحل مرةً أخرى .. سرب من النحل .. هزت رأسها لتتخلص منه. حاولت بكل طريقة منع تلك الأفكار من طرق رأسها.

ثم بدأت تمر على حجرات أولادها وهى تحمل بصعوبة صينية كبيرة, تُطقطق فقراتها ألماً.. دخلت لتُعطيهم الساندوتشات والشاى حتى وصلت لزوجها, جلست بجانبه كـقطة أليفة تتمسح به عّله ينظر ناحيتها أو يُعيرها أدنى إهتمام .. تشجعت وقالت كطفلة صغيرة تبكي ليلاً

– عاوزه اتكلم معاك.

أدهشه الأنين الطفولي لصوتها .. رد بلا مبالاه

– بعدين.

– بعدين إمتي ؟؟

رفع صوته قائلاً بنفاذ صبر :

– خلاص إنتي عاوزه إيه ؟

شعرت برعشة قويه تنتابها وهوان نفسها عليها .. وبدأت الدموع تنساب من عينيها. لو نظر ناحيتها لأشفق عليها وربما مسحت يديه دموعها لكنه ظل يقلب في الصحيفة ويرتشف الشاي ويستحلب

النيكوتين من سيجار مسكينه سيتركها بعد قليل وقد إحترقت

– خلاص مش عاوزه حاجة.

ألم تفكر يوماً كيف يشعر الفرد حين يكون منبوذاً؟

ثم تركته وقد تجرعت المرارة دفعة واحده .. تحاملت علي ساقيها اللتان تطقطقان بسبب الخشونة.

هذا الرجل إحتل حياتها عشرون عاماً, لم يُلحق بها أذي مادي .. لكن برودة أحاسيسه تجعلها ترتعد. هو شخص عديم الجدوي لكنها لاتستطيع التخلص منه

تذكرت بعض الابيات للشاعر أحمد مطر

" بيني وبين قاتلي حكاية طريفة

فقبل أن يطعنني حلفني بالكعبة الشريفة

أن احبس الدماء عن ثيابه النظيفة

لأنه سوف يصلي ركعتين بعد ان يفرُغ

من أداء الوظيفة "

فتحت النافذة تستنشق الهواء وتستجدي نسمة صيف, شعرت بالمرارة تملأ فمها فمنذ تمت ترقيتها مديرة للمدرسة .. إبتعدت عنها زميلاتها لأنها معروفه بالجدية والإنضباط فأصبحت منبوذة منهن.

الفصل الرابع

"هدي"

هل حقاً يمكن إدخال أي شئ إلي عقل المرأه عن طريق عواطفها؟ هل عواطفها هي سر مأساتها؟؟

أخر مرة زارتها أختها هدي .. عندما جاءت تعزمها علي خطوبة إبنتها يارا, شعرت هدي بحالة الإكتئاب التي تمر بها عزة ..

هدي اصغر من عزة بعام واحد لم تكمل الثانوية العامه وتزوجت من شخص تحبه وأنجبت أولادها وتفرغت لبيتها.

قالت عزة لهدي :

– دايماً بسأل نفسي هو أنا ناقصني إيه !

– صحيح يا عزة إنتي عندك بيت.

ردت عزة :

– بيت أنا فيه مُجرد خدامه ,.. داده.

– خدامة إيه ياختي بعد الشر.. كُلنا بنخدم أزواجنا وأولادنا.ثم أكملت وزوج

– زوج .. هو فين الزوج يا هدي؟ ده أنا لو تُهت منه فى الشارع مش هيعرفني , أكيد نسي ملامحي, ده مبيبوصش في وشي يا هدي, إنسي أنا بالنسبه لبيتي وزوجي وأولادي مُجرد خدامه, داده ،واحده بتخدم الكل وبتشتريلهم طلباتهم.

طيب بلاش ماهر خليني فـى أولادى, إمتي أخدوا رأيي فى أي شئ أو حكولي أي شئ؟

– أكيد الغلط عندك .. فاكره حديث النبي – صلي الله عليه وسلم–

"رَحمَّ الله رجلاً أعان ولده علي بره"

الحديث ده بيرد عليكي يا عزه إنتي كنتي مشغوله ومزرعتيش فيهم العاطفه, أهم حاجه عندك التفوق الدراسي حتي هم مش أصحاب.

يا عزه ده حتي التوأم دايماً بيتناقروا وأروي وإيمان مش اصحاب .. ايمان بارده زي أبوها.

– فاكره يا هدي بيت بابا زمان كان عامل إزاي .. كان كله حب وحنان ومليان دوشه وأصوات, فاكره كنا سُعدا قد إيه, وكانت الحياة دافية وجميلة,

كانت السفره بتجمعنا ٣ مرات فى اليوم, حالياً كل أكلنا ساندويتشات وكل واحد بياكل فى أوضته.

هدى إنتى إتجوزتى زواج صالونات, هو إنتى سعيدة ؟

سرحت هدى ثم همست قائلة :

– أنا عمرى ما سألت نفسى السؤال ده, أنا مكملتش تعليمى ولا إشتغلت زيك, كل همى أجوز بناتى وأكمل تعليم إبنى.

– الحال من بعضه.

– بس انا زوجى وأولادى حنينين.

– عارفه يا هدى حتى إنتى عندك مُهاب حتة سُكره.

– جنّ مصور لازم كل يوم يعمل مقلب, ميسيبش حد فى حاله أبداً.

– طالع لأبوه, فاكره علبة البودره اللى جابهالنا وإنتم مخطوبين.

– آه اللى كان حاطط فيها بودرة العفريت.

– ولا مقالبه اللى كان بيعملها فى سعيد جوز إيناس, والسجاير اللى مليانه بومب.

إبتسمت عزه وإستعادت ذكريات الماضى .. فى تلك الأيام لم تكن سعيدة أيضاً, كانت مشغولة البال تنتظر فتى الأحلام, تنهدت ثم قالت :

– كانت أيام.

– الغريبه يا عزه إنه عمره ماعمل مقلب فى ماهر جوزك.

– أعوذ بالله وهو ماهر ده ينفع يتهزر معاه أصلاً. عارفه نفسى فى إيه؟

– نفسك فى إيه ياعزه؟

– نفسى أشترى عربية رحلات, عارفاها دى اللى فيها مكان للنوم, نسيت إسمها إيه , وأسافر بيها .. ألف بيها الكره الأرضيه كلها.

ضحكت شقيقتها وقالت :

– وهتاخدى معاكى ماهر ؟

– لأ طبعاً .. ماهر هيكون كل همه إنى أعمله الأكل وهينام أو هيمشى لوحده من غيرى برضو.

تعجبت من نفسها حين وجدت لسانها ينطق شيئاً لم تُفكر فيه من قبل ولم تتخيل أنها ستقوله.

– نفسى أخلص منه.

– وهو فين الراجل الفاضى ياعزه اللى بيقعد مع مراته, أدى إحنا كلنا زيك .. جوزى بينزل كل سنه أجازه شهرين من السعودية, وهيام جوزها مشغول وكلنا كده.

– صحيح لكن دول بيشتغلوا مشغولين ومتحملين المسئولية, لكن ماهر شايل إيده من كل شئ.فى تعويض مادى بيوصل لك بدل غيابه عنك .

وقفت هدى وتناولت حقيبتها ثم إحتضنت شقيقتها قائلة :

– معلش ياأختى ربنا يهديهولك, أنا لازم أمشى عندى مليون حاجه لازم أعملها والخطوبة معادها قرب.

– إنتى ياهدى بتفكرينى بالأرنب فى قصة أليس فى بلاد العجائب .. دايماً مشغولة ودايماً وراكى حاجات.

ضحكت هدى حتى ظهر الضرس المخلوع فى فمها ..

– أنا اللى بستغرب إنتى إزاى بتفضى وتقعدى, دانا ست بيت بس ودايماً لايصة ومشغولة.

تمنت عزه ان تبقى أختها قليلاً, لكن دائماً تنتهى فترات الأنس فى حياتها سريعاً. زيارة خاطفة أو مناسبة عابرة تجتمع فيها بشقيقات شغلتهن الحياة.

الفصل الخامس

"وفاء"

زارتها شقيقتها وفاء يوماً, كانت حزينة .. سألتها عزه :

– خير يا وفاء, مالك؟

– النهارده عيد ميلادى.

– كل سنه وإنتى طيبة, عارفه وعاملة حساب هديتك.

– عمرك مانسيتى هدية واحده فينا ياعزه.

– يابنتى أنا أخوكم الكبير, راجلكم يعنى...

ضحكت وفاء وقالت :

– صحيح بابا كان بيقول عليكى كده دايماً.

– بس مالك زعلانة ليه ؟

– النهاردة كملت أربعين سنه.

– وماله أنا أكبر منك بـ ٥ سنين.

– سن الأربعين مُقبض قوى ياعزه.

قالت عزه وكأنما تُقنع نفسها بما ستقوله :

– يابنتى دا سن النُضج والجمال وإكتمال الأنوثة.

– أنوثة إيه ياعزه, تحبى أوريكى شعرى الأبيض.

– دا علشان إنتى حنينة, وقلبك طيب .. بالك البت هيام أصغر منك ب سنة واحده .. مفيش فى راسها شعرة بيضة.

– تلاقيها بتصبغ.

ضحكت الشقيقتان, لكن عزه كست ملامحها بعض الجدية وقالت :

– تعرفى إن رقم أربعين غريب جداً.

– إزاى يعنى؟

– يعنى مثلاً عند الصوفيين بيرمز إلى الإرتفاع من مستوى إلى مستوى فى القُرب من الله, كمان لما حد بيموت بنحزن عليه أربعين يوم, والطفل بيمر بـ ٣ مراحل فى تكوينه فى بطن أمه .. كل مرحلة أربعين يوم, وبعد ولادته بيفضل أربعين يوم لحد ما يتهئ للحياة على الأرض.

قالت وفاء :

– كمان إستمر طوفان سيدنا نوح أربعين يوم, وسيدنا محمد بُعث نبياً فى سن الأربعين, تقريباً أنبياء كتير بُعثوا فى سن الأربعين.

– شفتى الأربعين حلوة قد إيه.

– يعنى إنتى مُستمتعة بالأربعين ياحجة.

صمتت عزه ثم قالت وهى كاذبة :

– طبعاً سعيدة جداً, وهعملك أحلى تورتة شيكولاتة بمناسبة عيد ميلادك.

كانت وفاء أقرب الشقيقات إلى قلب عزه, ربما بسبب ظروفها الصعبة ..

فقد توفى زوجها وهى لا تزال فى الرابعة والعشرين من عمرها, فـأصر والد زوجها أن يزوجها من شقيقه الأصغر طالب الثانوية العامة حتى يُربى أبناء شقيقه, رفضت وفاء ذلك الزواج .. لكنها رضخت فى النهاية عندما هدد بنزع حضانة أولادها منها ..

كانت وفاء تعيش أتعس حياة مع زوج يكرهها ويخونها , وهى تعلم ذلك ولا تستطيع الإعتراض حتى تُربى أولادها

الستة من زوجيها الراحل فؤاد الحبيب إلى قلبها .. والحى فايز البغيض إلى قلبها.

عندما تتذكر عزه وفاء وتعاستها تشعر بأنها أفضل حالاً من شقيقتها,

تأملت عزه ملامح وفاء الهادئة برغم قسوة حياتها وتتعجب .. كيف تتحمل كل ما مر بها, ربما تكون متبلدة المشاعر, وليس الهدوء الظاهر على مُحياها إلا ملمح من ملامح البرودواللامبالاة. ثم تعود وتندم على سوء ظنها فى شقيقتها الطيبة سيئة الحظ.

ندمت وفاء على أنها لم تُكمل تعليمها, وأنها تزوجت عى سن السادسة عشر رجلاً أحبته لدرجة العشق وأنجبت منه ثلاثة أطفال, كان هو وأطفاله كل عالمها الصغير الجميل.

وفجأة عاد لها محمولاً على أكتاف الرجال, دهسته سيارة مسرعة وهو يعبر الطريق, ومات هكذا ببساطة, مات فؤاد وإنتهى , إنطفأت الشمس فجأة وصار كل ماحولها باهت فاتر لا لون ولا طعم ولا رائحة ..

لذا عندما أصر حماها على تزويجها من فايز شقيقه الأصغر وافقت وزُفت إليه بجسد ميت وروح تُحلق خارج جدران البيت.

الفصل السادس

فايز

ظل فايز يعامل وفاء كإنسانة غريبة عنه وكانت هى راضية بذلك كل الرضا, ليست زوجته لا تزال زوجة شقيقة الراحل عندما ينام معها فى نفس الفراش يخاف أن تلمسها يده .وتنام هى بملابسها السوداء وطرحتها الكبيرة وعبوسها لا يفارقها .

ظل الحال هكذا حتى رسب فى الثانوية العامة للعام الثالث , فضربه والده وطرده من البيت, وعندما عاد للبيت بعد ستة أشهر كان شخصاً أخر ..

أدمن تعاطى المخدرات وسكنت عينه نظرة باردة قاسية وبدأ يُعامل وفاء كـزوجته وأحياناً كعشيقته .. فهو تحت تأثير المُخدر يتحول إلى مجنون, وعندما يعود إلى وعيه يكون فى حالة بحث عن مال لـشراء المُخدر .. كانت تلك الفترة من

أشد الأيام قسوة فى حياة وفاء, أيام تتمنى أن تنساها ولا تستطيع وصفها بالكلمات.

لم تعترض يوماً على خيانات زوجها لها ولياليه الحمراء, بل كانت تُشفق عليه فقد كان طالباً مُجتهداً مُهذباً رباه زوجها ..

كان الفرق بينه وبين شقيقه فؤاد ثمانى عشرة سنة, فكان فايز يعتبر فؤاد ولده لا شقيقه .. كان دائماً يهرب إليه من قسوة والده وكانت وفاء بالنسبة له شقيقته الحنون, كانت شقة فؤاد و وفاء المكان الوحيد الذى يجد به الراحة والهدوء, عندما توفى فؤاد شعر فايز باليُتم والقهر ..

لكن كل شئ يبدأ صغيراً ثم يكبُر إلا الحزن فيبدأ كبيراً ثم يصغر بمرور الأيام.

إعتاد فايز وفاة فؤاد لكنه كان حريصاً كل الحرص على زيارة وفاء والإطمئنان عليها وتلبية كل طلباتها. أما أن يتزوجها فكان هذا شئ خارج التصور يفوق إحتماله, كيف يتزوج من كانت بمثابة شقيقته؟

يوم عقد قرانه كان أسود يوم مر عليه, حتى أسوأ من يوم وفاة فؤاد .. كل مكان بالبيت يُذكره بفؤاد, وفاء نفسها هى فؤاد .. وفاء الحزينة المُنكسرة تكبره بسته أعوام .. هادئة جداً وحزينة دوما,

إعترضت ورفضت الزواج, بكت كثيراً .. لكن والده لا يقبل الرفض, الوحيد الذى كان يواجهه ويقف أما عنته وقسوته هو فؤاد .. الآن مات فؤاد تاركاً ثلاثة أطفال وأرملة شابة جميلة.

كان فى الماضى فايز الفتى المرح البشوش المتفوق الذى ينتظره مستقبل مُشرق

ثم صار الفتى الكسول الوحيد المهزوم .. حتى رافق من كان يبغضهم ويحتقرهم, حين رسب فى الثانوية للمرة الثالثة.

فتحول إلى المدمن الذى ينام مع شقيقته وزوجة شقيقه, كان أحياناً يتخيل نفسه يُعاشر فؤاد شقيقه .. يرى وفاء وهى معه كأنها فؤاد, يرى دموعها وأنينها. فيتذكر وجه فؤاد, رائحتها مثل رائحة فؤاد .. كيف مرت به السنوات الآن وقد أنجبت له أولاده أيضاً .. أولاده الذين لا يعلم عنهم شيئاً.

إستفز فايز مرات الرسوب فى أكثر من كلية, وضرب أحد المراقبين فـفُصل من الجامعة, وصار يقضى ليله فى السهر

ونهاره فى النوم, لم يكن المال يعنيه من قبل, فإيراد العمارة التى كان يسكنها كان مُخصص لمصروف بيته.

عندما تزوج وفاء .. سجل والده العمارة بإسم وفاء فى الشهر العقارى, العمارة بها الكثير من الشقق والمحال التجارية وعائدها يكفيهم ويفيض,

صارت وفاء بالنسبة له جسداً يُمزقه كل ليلة بلا رحمة .. فإزدادت نحولاً وشحوباً على مر الأيام ..

الآن إبنتها صارت تشبهها, ولاء بنت وفاء فى الثانوية العامة .. أحياناً وتحت تأثير المُخدر يحاول الإقتراب من ولاء , فصارت الفتاة تكرهه وتهرب منه.

كان يتسائل .. هل الحياة عادلة؟ وهل أنا ضحية أم جلاد؟ لماذا إستسلمت لأبى وما ذنب وفاء وأولادها الستة فى هذا الشقاء؟

لم يكن يحتمل نظرات البُغض والخوف فى عين ولاء, ولا نظرات القلق والتسائل فى عين وفاء ..

يعلم أن ولاء لم تحكى لأمها شيئاً فكل ماكان يُساورها مُجرد شكوك وخوف, لذا ترك المبيت فى بيت وفاء ..

لا يزورها إلا وهو منتبهاً لأفعاله حتى يتبقى لديه على الأقل القليل من الرحمة فلا يقضى على ولاء.

لكن عندما تحولت وفاء إلى متصوفة حسب فهمها البسيط بالصوفية, وهو العشق الإلهى ومناجاة الخالق ليل نهار

فصارت تعلو وجهها دوماً مُسحة من الهدوء والوقار والحزن الجميل, لجأت للعبادة حتى تتحمل حياتها التعسة .

أدركت دوماً أن التمرد لا يليق بها, كانت تعلم أنها مملة حد الموت, كانت تؤمن أن التعاسة هى الطريق إلى السعادة .. تحفظ أشعار جلال الدين الرومى وتستشهد بها دوماً حين توجه أولادها يقول جلال الدين الرومى (١)

حسبتُ أنى حكمت نفسى فتأسيت على زمانٍ قد مضى

أخذاً فى إعتبار شيئاً واحداً أعلمه لستُ أدرى من أنا

---

(١) حمد بن محمد بن حسين بهاء الدين البلخي؛ المعروف بمولانا جلال (١٢٠٧ - 1273)

الدىن الرومي. هو أديب وفقيه ومنظِّر وقانوني صوفي. عرف بالرومي لأنه قضى معظم حياته لدى سلاجقة الروم في تركيا الحالية .وما كاد يبلغ الثالثة من عمره حتى انتقل مع أبيه إلى "بغداد" سنة ١٢١٠م على إثر خلاف بين أبيه والوالي "محمد قطب الدين خوارزم شاه". وفي بغداد نزل أبوه في المدرسة المستنصرية، ولكنه لم يستقر بها طويلاً؛ إذ قام برحلة واسعة زار خلالها دمشق ومكة و"ملسطية" و"أرزبخان" و"لارند"، ثم استقر آخر الأمر في قونية في عام ٦٣٢ هـ / ١٢٢٦م حيث وجد الحماية والرعاية في كنف الأمير السلجوقي "علاء الدين قبقباذ"، واختير للتدريس في أربع مدارس بـ"قونية" حتى توفي سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣١م، فخلفه ابنه "جلال الدين" في التدريس بتلك المدارس. وحين وفاته في عام ١٢٧٣م، دفن في

قونية وأصبح مدفنه مزارا إلى يومنا. وبعد مماته، قام أتباعه وإبنه سلطان ولد بتأسيس الطريقة المولوية الصوفية والتي اشتهرت بدراويشها ورقصتهم الروحية الدائرية)المولوية) التي عرفت بالسمع والرقصة المميزة .

ويقول

عيوننا ما تراك لكنَّ عُذراً لنا فالعيون ترى مظهراً لا حقيقة

ولو أن لطيفة هذه المنزلة تُرجى دوماً

كانت تحفظ هذه الأشعار ولا تفهمها, لا يُصبح المرء مؤمناً بين ليلةٍ وضحاها .. كانت طيلة عمرها تعتقد أنها مؤمنة ومُحدة بالله لكنها كانت تعبد الله بقلبٍ لاهٍ ,

أما الآن فصار كل جسدها يعشق العبادة, يعشق القرب من الله والحديث معه, لم يكن يربطها بالدنيا إلا أولادها ..

لولاهم لإعتزلت العالم وتفرغت للعبادة, كانت تحاول دوماً إبعاد فايز عن بؤرة الإدمان .. وتحاول أن تداوى جروح نفسه, لكنها فشلت فى ذلك ..

ثم صار عندما يراها ويسمعها تقرأ القرآن يهدأ ويشعر بطمئنينة ويبتسم لها فى هدوء.

إختفى فايز ولم يعلم أحد مكانه , حتى أن والده نشر صورته بالجرائد, لم يُعثر له على أثر ..

بعد ستة أشهر عاد فايز شخصاً أخر, إختفت الهالات السوداء من تحت عينيه وكسى وجهه وجسده بعض اللحم وملأ الهدوء نظراته وتوقف عن حك أنفه بعصبية,

أصبحت نظراته مُركزة وخالية من القسوة, أخبر وفاء أنه كان فى مصحة لعلاج الإدمان .. كم كانت سعيدة إحتضنته وقبلت يده,

قال فايز سمعتك تقرأين فى إحدى الليالى قوله تعالى:- "ألم يأن للذين أمنو أن تخشع قلوبهم لذكر الله" .

جلست أتأمل حياتى وما مر بى, ومع أننى كنت حزيناً مُتعباً إلا أننى شعرت بطمئنينة كبيرة فى أعماقى, تلك الطمئنينة كانت لمحة نور عبرت بداخلى وتمنيت أن تبقى موجودة دوماً ..

فى تلك اللحظه علمت أن الله موجود وأنه يحبنى ومع أن جسدى كان يؤلمنى ويطالبنى بجرعة المُخدر إلا أننى لم أعد أشعر بالألم مُنذ تلك الليلة لم أتعاطى أى مُخدر.

كانت تلك الليلة فى العشر الأواخر من رمضان, قبل العيد بليلتين,

إستيقظت فجراً .. كنتم جميعاً نيام, حملت بعض المال وذهبت إلى تلك المصحة ..

ستة أشهر بدون مًخدر وأنت تعلمين أننى طيلة أربعة عشر عاماً لم أحتمل مرور ستة ساعات دون مُخدر.

كانت وفاء تشتاق إلى فايز وتريد أن تطمئن عليه, فقد إعتادت أن يكون زوجها .. فى قرارة نفسها لم تُدرك أنها تُحبه .. الآن شعرت أنها تُحبه كـرجل .. كـزوج ,

صارت تشترى الثياب الملونة وتهتم بشعرها ووجهها وتحاول أن تُرضى زوجها وأن تكون جميلة فى عينيه. لذلك صارت قلقة من عمر الأربعين,

وصار فايز أكثر حناناً وإهتماماً بها وبأولادها ويحاول بكل طريقة أن يُصلح ما بينه وبين ولاء.

الفصل السابع

الحب الاعمى يقوده الجنون

قرأت عزة ذات مره حكمة تقول ..

" أن الأسد يسير وحيداً ولكن الخراف تسير في قطيع, فلا تغضب لكونك أسد وحيد"

هى كانت كذلك أسد وحيد حقا, كانت صارمة فى إدارتها للمدرسة ولا تتهاون مع المقصرين, حتى صارت أفضل مديرة مدرسة بفضل إدارتها الحازمة.

وصارت مدرستها من أفضل المدارس .. فهى تمر بنفسها على الفصول وعينيها تتجولان فى كل مكان, تحاول بث الروح فى ذلك البناء العتيق وفى العاملين فيه.

العلم والعمل هما أساس نهضة المجتمع, التدريس رسالة سامية, أنت تدخل الفصل فترى عشرات العيون تتعلق بك, تنظر لك تتفحصك, هل تعلم كيف تؤثر فى تلك العقول الصغيرة بأفكار جميلة ؟

لا تستهن بنظراتهم إليك فهم يفحصونك من إخمص قدمك لمفرق رأسك, يمسحونك مسحا.

هذه كانت كلمتها فى إجتماع للمعلمين والمعلمات ..

المعلم الحقيقي هو من يوجه إنتباه التلاميذ ناحيته, ولا يُجبر الطالب على الطاعة المطلقة, بل يوجه طاقة التلاميذ الداخلية .. لابد أن يقتدى المعلم بالرُسل, فكما قيل "كاد المعلم أن يكون رسولا" .

المعلم الناجح يخلو من الأنانية لابد أن يكون صاحب رسالة سامية .

أكثر ما أثار غضبها صوت رنات المحمول المتكررة برغم أنها طلبت من الجميع غلق الموبايلات فى بداية الإجتماع.

رد أحد المعلمين :-

- يا أستاذة ده جيل فاسد, هما دول طلاب.. ده طالب بسأله :

– لماذا يعطى الماء صوتاً عند الغليان؟

يقولى: – لأن الجراثيم بتطلب النجدة !!!

ابتسمت قائلة:

– إجابة منطقية ذكية .

ممكن عن طريق الكلمات دى تحببهم فى الدروس وممكن أنت اللى تقولهم القفشات دى.

يعنى مثلا أسألهم لماذا القطار مهم ؟

حد منكم ممكن يجاوب ؟

قال أحدهم:

– القطار وسيلة مواصلات نظيفة قليلة التكاليف لا تلوث البيئة .

قالت عزة:

– معاك حق برغم الحوادث الكبيرة..

طيب ممكن نخفف المعلومة بمزحة ونقول يا اولاد القطار مهم لإن تحته خطين .

إبتسم البعض .. قالت :

– أرأيتم كيف إبتسمتم .

وبدا حوار بين الأساتذة وبعضهم عن قفشات الطلاب ..

الأستاذ : كيف يتكون الندى ؟

الطالب : عند دوران الأرض تتعب وتعرق فيتكون الندى.

الأستاذ : ماهي الثورة يا تلاميذ ؟

تلميذ : زوجة الثور ياأستاذ.

الأستاذ : ماتعريف الصخور الراسبة ؟

الطالب : هي اللي تذاكر طوال العام ولا تنجح.

الأستاذ : متى يحدث الزلزال ؟

الطالب : في فصل الشتاء,

تصاب الأرض ببرد شديد فتعطس و يحدث زلزال.

الأستاذ : من هو المنافق ؟

الطالب : هو اللي يدخل المدرسة مبتسم.

إنقلب الإجتماع إلى هزار وتهريج, تركتهم يمزحون قليلاً

ثم سيطرت عزة ثانية على الإجتماع بهدوء وحزم

وأكملت ما بدأته, و بدأت تتحدث عن التعليمات الجديدة الواردة من الإدارة التعليمية ،

ثم أعطت الكلمة لناظر المدرسة عندما شعرت بنوبة العرق تزحف نحوها كموجة قادمة من المجهول لتغرقها وتزهق أنفاسها،

تجرعت خلال الإجتماع كوبين من القهوة, ولم تستسلم لزملاء يرمقونها بفضول لمشاهدة أمرآة تحترق.

دقائق وتنتهي موجة العرق قبل أن توشك على لفظ أنفاسها .

إمتصت تطفل نظراتهم قبل أن تلملم نفسها وتهرب,

لقد وقعت صك عبودية لعملها كمدرسة .

جاءت الأخصائية الإجتماعية وقالت

– هناك أمر أريد أن أعرضه عليك يا سيادة المديرة

– خير يا أمل

قالت :

– قصة حب بين طالب وطالبة فى الصف الثالث فى فصل المتفوقين

– وعرفتِ ازاى ، إيه اللى حصل ؟

– البنت غابت عن المدرسة يومين فالولد بعت لها جواب .

– عادى مش اول مرة تحصل.

– أيوه صحيح بس الجواب وقع في ايد أبو البنت وهو اللى جابه وجه هنا.

– وعملتى ايه؟

– أخدت منه الجواب وحاولت أهَّديه.

وناولت أمل الخطاب لعزة

– دى قصيدة شعر والكلام رائع وبيحتمل أكثر من معنى والطالب لم يذكر اسمه.

– ده صحيح بس الكل عارف هو مين.

– هو مين ؟

– محمد نور شاكر.

– معقول محمد نور ده الأول على المدرسة والطالب المتفوق وعضو نادى العلوم.

– وهتستغربي اكتر لما تعرفي مين البنت.

– مين أكيد شريهان نجيب.

– لا طبعاً هو ممكن محمد يحب شريهان نجيب الدلوعة القنزوحة ، صحيح فى أكتر من ولد مُعجب بها لكن محمد لما يحب يحب إسراء عليوة.

– إسراء منافسته دايماً وبيغيروا من بعض.

– القلب له أحكام يا مس.

كانت دوماً قصص حب المراهقة مادة لتسلية المدرسين والمدرسات يضعونها دوماً تحت أعينهم, تبدأ القصة وتستمر لمدة أسبوع أو أسبوعين ثم تنتهى كموجات تعلو وتنتهى ثم يتبدل الأبطال.

سرحت عزة، لماذا لم أمر بقصة حب فى فترة المراهقة؟

كنت فى تلك الفترة مشغولة بمشاكل بيتنا، فى المرحلة الاعدادية تزوج أبي زوجتين غير أمى وكانت جدتى لا تزال فى بيتنا

كانت أمل تتحدث وعزة سرحانة تتخيل نفسها صغيرة تتلقى رسالة جميلة مثل هذه ,

– أستاذة عزة ؟

– نعم يا أمل أسمعك

– ولى أمر البنت مُنفعل جداً

– عندما يأتى غدا أدخليه لمكتبي

وإبعتيلى محمد نور وإسراء عليوة

– إسراء غابت النهاردة كمان

– طيب إبعتيلى محمد

بعد قليل دخل محمد مكتب المديرة .... ومحمدطالب مهذب ومهندم دائماً، مهتم جداً بدراسته وتفوقه، يُتعب المعلمين باسئلته ومناقشاته ، مشاغب دائماً خارج الفصل ..

ناولته المديرة الرسالة ,

فكاد ان يغمى عليه

– أقعد يا محمد

قالت عزة :

– ده خطك ودى أبياتك ؟

كان فى مقدوره أن يكذب لكنه قال الحقيقة

– نعم يا مس

– كتبتها لمين

– لإسراء يا مس

– وبعتها لها مع أختها مروة اللى فى سنة أولى ؟

– أيوا

– أنت عارف إن تصرفك ده غلط

غمم محمد

– عارف لكن ...

– لكن إيه يا محمد إنت لو ليك أخت تحب إن أى ولد يبعت لها جواب

– لا يا مس

– طيب ليه عملت كدا ؟

– أنا بحبها يا مس

صمت محمد وإعترته رعشة كبيرة ثم قال :

– إنتِ دايماً بتقولى لنا إن حضرتك أمنا ممكن أحكى لك كل حاجة.

نظرت نحوه بحنو وعطف

– إحكى يا محمد سامعاك

– والله أنا ما فى نيتى أى شئ يضر إسراء وعمرى ما فكرت فيها تفكير سئ ، أنا بحب أبص لها واتكلم معاها ده كل الموضوع.

بكتب لها شعر وبيعجبها وهى بتكتب شعر وبنتناقش فيه ,

والقصيدة دى عن حب الحياة كنا بنتدرب على الإرتجال دايماً مع بعض على الفيس بوك, جمعت الابيات اللى إرتجلناها .. نُص الابيات لإسراء ونصها ليا,

علشان كدا هتلاقى أبياتى مكتوبه بالازرق وأبيات اسراء مكتوبة بالإسود, جمعتها فى ورقه وبعتها مع أختها لما غابت يومين.

– وليه بعتها ومنتظرتش لحد ما ترجع.

– بصراحة حبيت اطمن عليها.

– حكيت لمامتك عن الموضوع ده.

– لا حضرتك أول حد أحكى له.

قالت عزه فى نفسها أنت كمان زى ولادى مبتحكيش لمامتك حاجه ..

– والدتى بشوفها مرة كل اجازة صيف، هى متزوجه واحد غير بابا,

زوجها سعودى فبتنزل كل سنة فى الصيف .. وبابا مُتزوج وبيشتغل فى الغردقة وأنا عايش مع جدتى أم بابا دى ست كبيرة مش هتفهمنى.

– أنا فاهماك يا محمد بس عايزاك توعدنى إنك تفضل متفوق دايماً ومتعطلش إسراء عن تفوقها

– انا يا مس مستقبلى بحلم بيه كل يوم لكن مفيش مانع إنى أتخيل اسراء جزء منه

كان محمد يتحدث كأنه رجُل صغير .

صحيح الخيال حلو ومافيش مانع منه لكن فى حدود الادب والحلال والحرام

قالت عزة :–

– مفيش كلام خلاص والد اسراء منعها من دخول الفيس

– هى كانت بتدخل ساعتين كل يوم خميس وهى واخواتها كلهم مع بعض يعنى مكانش ابداً فى بينا كلام خاص لا على الفيس ولا فى أى مكان هو مجرد احساس وشئ من الـ ...

صمت محمد ولم يكمل كلامه فإنهمرت دموعه ، أمسكت عزة بيده وقالت :

– معلش فى سنك ده بتحصل لك مشاعر وأحاسيس متناقضة بس أنت لازم توعدنى

– أوعدك يامس

– كمان هات لى الملف اللى عليه اشعارك إنت وإسراء وباقى اللى كانوا بيرتجلوا معاكم علشان والدها يطمن وتتحل المشكلة

– حاضر يا مس

– عارف وأنا فى عمرك ده كنت ببحث عن الكمال وأعتقد إنك كمان بتبحث عن الكمال

الناس ثلاثة انواع،,

طبيعى يشعر بنقصه ويسعى دوما لمعالجة نقصة، ومتكبر مغرور معجب بنفسه فلا يشعر بذلك النقص ، والنوع الثالث من يشعر بالدونية فيحقد على كل من هو أفضل منه لأنه يشعر بعجزه وبكمال من حوله ،

– فهمت يا محمد

– فهمت يا مس

– فى حاجه كمان يا مس,

فى مسرحية كنت أتمنى حضرتك توافقى إننا نمثلها,

وأخرج من جيبه ورقة تتحدث عن اسطورة الحب اليونانية

في قديم الزمان ..

حيث لم يكن على الأرض بشر بعد

كانت الفضائل والرذائل تطوف العالم معاً وتشعر بالملل الشديد .

ذات يوم .. وكحل لمشكلة الملل المستعصية,

اقترح الإبداع لعبة, وأسماها الأستغماية أو الطميمة, أحب الجميع الفكرة ..

وصرخ الجنون:

– أريد أن أبدأ.. أريد أن أبدأ,

أنا من سيغمض عينيه, ويبدأ العدّ .. وأنتم عليكم مباشرة الأختفاء.

ثم إتكأ بمرفقيه على شجرة وبدأ ..

واحد .. اثنين .. ثلاثة ..

وبدأت الفضائل والرذائل بالإختباء..

وجدت الرقة مكاناً لنفسها فوق القمر..

وأخفت الخيانة نفسها في كومة زبالة...

وذهب الولع واختبأ هناك بين الغيوم..

ومضى الشوق إلى باطن الأرض...

وقال الكذب بصوتٍ عالٍ :

سأُخفي نفسي تحت الحجارة.. ثم توجه لقعر البحيرة..

واستمر الجنون: تسعة وسبعون... ثمانون.... واحد وثمانون..

خلال ذلك أتمت كل الفضائل والرذائل تخفيها .. ماعدا الحب

كعادته, لم يكن صاحب قرار .. وبالتالي لم يُقرر أين يختفي ..

وهذا غير مفاجيء لأحد... فنحن نعلم كم هو صعب إخفاء الحب..

تابع الجنون: خمسة وتسعون .. سبعة وتسعون ..

وعندما وصل الجنون في تعداده الى مائة ..

قفز الحب وسط أجمة من الورد .. وإختفى بداخلها ..

فتح الجنون عينيه.. وبدأ البحث صائحا:

– أنا آتٍ اليكم .. أنا آتٍ

كان الكسل أول من إنكشف لأنه لم يبذل أي جهد في إخفاء نفسه..

ثم ظهرت الرقّة المختفية في القمر...

وبعدها.. خرج الكذب من قاع البحيرة مقطوع النفس ... !

واشار على الشوق ان يرجع من باطن الأرض...

وجدهم الجنون جميعاً.. واحداً بعد الآخر....

ماعدا الحب...

كاد يصاب بالأحباط واليأس.. في بحثه عن الحب...

الى ان اقترب منه الحسد ، ، ،

وهمس في أذنه:

الحب مختف في شجيرة الورد ..

التقط الجنون شوكة خشبية أشبه بالرمح.. وبدأ في طعن شجيرة الورد بشكل طائش، ليخرج منها الحب

ولم يتوقف إلا عندما سمع صوت بكاء يمزق القلوب...

ظهر الحب .. وهو يحجب عينيه بيديه .. والدم يقطر من بين أصابعه .

صاح الجنون نادماً : يا الهي ماذا فعلت؟

ماذا أفعل كي أصلح غلطتي بعد أن أفقدتك البصر ؟

أجابه الحب: لن تستطيع إعادة النظر لي .. لكن لازال هناك ماتستطيع فعله لأجلي .. كن دليلي ..

وهذا ماحصل من يومها .. يمضي الحب الأعمى, يقوده الجنون

خرج محمد وترك عزة تقرأ ما كتب فى الورقة وهى فى حالة ذهول, ما هذا الكلام؟ نعم الحب أعمى

دخلت أمل قائلة :

– ايه الاخبار يا سيادة المديرة ؟

حاولت عزة ان تجد صوتها فخرج رغماً عنها ضعيفاً

– زى ما توقعتى يا أمل هعرض على والد اسراء لما ييجى بكرة أشعار اسراء ومحمد وباقى المجموعة وهنشوف هيقتنع ام لا.

فى اليوم التالى تم الأمر كما خططت له عزة اقنعت والد اسراء أن الورقة مجرد إرتجال أشعار بين مجموعة من الطلاب

لكن والد اسراء قال :–

– فهمنا يا حضرة المديرة إن ده كلام أشعار والموضوع مفيهوش ولد بيعاكسها ولا حاجه

لكن الشعر ده تضييع وقت البنت دى كدا هتضيع مستقبلها فى الشعر والكلام الفاضى

قالت عزه :

– اولاً : الشعر مش كلام فاضى، الجامعات كل سنة بتخرج أطباء ومهندسين لكن كل كام سنة لما بيظهر شاعر واحد .

وعندك الكثير من المتفوقين شعراء زى دكتور إبراهيم ناجى وغيره وغيره.....!. الهواية شئ رائع جميل بتخرج كل شئ سئ من النفس وتنقيها .

حاول استاذ عليوة ان يرد فلم تمهله .. وأكملت كلامها :

– إن شاء الله المدرسة هتعمل مسابقة للشعر والهوايات وهيكون فيه تنافس شريف بين إسراء وزمايلها .

– لكن يا ست المديرة ...

قاطعته قائلة :

– المهم إن الطالب والطالبه يكون عندهم شخصية سوية خاليه من العقد والأمراض النفسية

– خرج الوالد وهو راضي كل الرضا عن إبنته.

جاءت اسراء فى الفسحة هى ومحمد والأستاذ بكر مدرس اللغة العربية واحد مشجعى اسراء ومحمد على كتابة الشعر, وطلبوا مقابلة المديرة

شكر الأولاد المديرة على موقفها وتفهمها وعند إنصرافهم بقي الاستاذ بكر وقال :

– يا استاذة عزة حضرتك أحسنت التصرف فى موضوع محمد واسراء .

انا حصل معايا الموقف ده وكنت فى الثانوية العامة لكن مديرالمدرسة لما عرف إنى بحب زميلتى عاقبنا وأرسل استدعاء لأولياء أمورنا، وما كان من والد زميلتى إلا إنه قعدها فى البيت قبل امتحان الثانوية العامة بشهرين ودمر

مستقبلها ، وزوجها أول عريس اتقدم لها وبعدها بسنة اتطلقت

وانا مرت عليه سنة من أسوأ سنين عمرى لكن الحمد لله بمرور الوقت قدرت انسي .

– إحنا فى النهاية يا استاذ بكر أباء وأولياء أمور قبل ما نكون مجرد مدرسين والعنف عمره ما حل مشكلة .

– عندك حق يا استاذة.

– انت عندك حصص.

– لا يا افندم.

– طيب تعالى معايا نمر على الفصول.

مررت مع أستاذ بكر على بعض الفصول فوجدت معلم اللغة العربية استاذ اسماعيل يعنف أحد طلاب الفرقة الأولى .. وعندما سألته عن السبب قال :

– يا سيادة المديرة كاتب قطعة الإملاء كاملة دون همزات .

تذكرت حين كانت طفلة ومرت بنفس التجربة كانت لا تُطيق الهمزات وخصوصاً همزة القطع، وعندما أخبرتها المعلمة أبلة (صابرين طُلبة) التى لم تنساها يوماً

أن همزة القطع تشبة البرنيطة أما همزة الوصل فهى كالرأس العارية دون غطاء.

كانت تعتقد أن همزة القطع متكبرة متكلفة وعزة دائما بسيطة تحب البساطة وتنفر من التكلف .

إبتسمت وقالت للتلاميذ مستعيدة كلمات ابلة صابرين إن الهمزة مثل البرنيطة نضعها أحيانا ونخلعها أحيانا ، حين نضعها تسمى همزة تكون حادة ورسمية وقاطعة، وحين لا نضعها تكون الف الوصل البسيطة الطيبة

ابتسم استاذ اسماعيل متملقا بلهجته الريفية وقال :

– ما شاء الله يا سيادة المديرة كان حقك تكونى شاعرة أى والله

التفتت عزة للاستاذ اسماعيل وقالت :-

- بسط المعلومة واعرض أمثلة أكتر وأعطيهم تدريبات اكتر يا استاذ اسماعيل .

اللغة العربية مظلومة معظم الطلاب بيكرهوها و خصوصاً النحو, أنا عن نفسي بشوفه صعب جداً.

رد أستاذ بكر :

- عندك حق يا استاذة المناهج بتشجع على الحفظ, إحنا محتاجين فعلاً مناهج جديدة تستوعب طاقات الطلاب, وتنمى ملكاتهم الإبداعية, وتحببهم فى اللغة العربية.

الفصل الثامن

قطرة المطر

عندما عادت عزه إلى البيت كانت مُجهدة إلى درجة الإعياء لكنها أعدت الطعام .

أعدت لكل شخص طبقه المفضل، فكل فرد فى الاسرة له طلب مختلف عن الأخر واعتادت هى أن تُلبي طلبات الجميع.

كان يوم الأحد من كل أسبوع مُخصص لتناول السمك،

كانت إيمان تحب السمك المشوى, وماهر وأروى يطلبون السمك فى صينية بالفرن, ومحمد ومصطفى يطلبون السمك المقلى ..

فكانت تُعد الثلاث أصناف من السمك مما يزيد من معاناتها وتعبها وبرغم ذلك لم تعترض طيلة عمرها ولم تطالبهم بتوحيد اذواقهم .

بعد الإنتهاء من إعداد الطعام غسلت المواعين أو كما كانت تسميها الملاعين،

لم تكن الاسرة تجتمع لتناول الطعام إلا يوم الجمعة لذلك كانت تهتم بيوم الجمعة ترتب المائدة وتضع بعض الورود وتضع الطعام فى الطقم الصينى .

عندما نظرت من النافذة وجدت جارتها الشابة شيرين وزوجها يجلسان فى البلكونة المملوءة بالزهور والعصافير,

كانت تستمتع بمتابعتهم وتتمنى أن تحظى ببعض لحظات الصفاء مع ماهر، لذا خافت أن تحسد جارتها على سعادتها فرفعت سبابتها وتوارت خلف الستارة وبدت تقرأ المعوذتين لترقيهم .

كان ماهر يُحب قراءة الروايات ويشترى كل شهر كتاب أو كتابين, أحيانا كانت تشاركه قراءة بعض الكتب،

قرأت رواية قواعد العشق الاربعون لإليف شافاق أعجبتها الرواية جداً وشعرت أن الكاتبة تقصدها هى عندما تصف حياة إيلا البطلة التى ضحت بكل شئ فى سبيل بناء

أسرة سعيدة وعاشت متفانية ومتسامحة الى أقصى حد لكن هذه المرأة تبدلت بعد الأربعين .

لكن إيلا لم تكن مثل عزة فهى لم تضحى مثلها بمالها وأعصابها، كذلك لم يكن زوج إيلا فى ربع برود ماهر، كان طبيباً مشغولاً،

الأخطر هو أن إيلا أحبت وعاشت قصة حب غيرت مجرى حياتها تماماً ،

تُرى هل يمكن أن تحب عزة شخصا آخر غير ماهر وتترك كل شئ وترحل ببساطة مع من تحب؟

عندما جلست عزة ذات يوم لتناقش ماهر فى الرواية تحدث معها بهدوء قائلاً

– إن هذه الرواية تتحدث عن مجتمع مختلف عن مجتمعنا, يعنى إن المرأة فى الغرب تطالب الرجل بالمساواة فى كل شئ أما فى بلادنا فهى تستمتع بالتضحية وتستعذب الألم .

سألته عزة وقد خفضت صوتها لدرجة الهمس :

– هل هذا فهمك للمرأة المصرية حقا ؟

وهل المرأة لو ضحت وأعطت أليس من حقها شئ بالمقابل ؟

– إنتِ عايزة تقولى ايه يا عزة؟

– أجمل شئ فى الدنيا يا ماهر أن يحيا الانسان قصة حب .

ابتسم ماهر :

– مش بقولك بقيتى مراهقة على مكبر هى دى المراهقة المتأخرة .

– يعنى إيه ؟

رد ماهر ببرود :

– يعنى أنا ماليش ذنب إن محدش حبك ولا إنك معشتيش قصة حب.

– وهل ده شئ سئ المفروض إن ده يسعدك كونك أول رجل فى حياتى

وشعرت بغصة فى حلقها فقالت :

– وعموما أنا بتكلم عن ايلا بطلة الرواية مبتكلمش عنى

– عزة قومى اعملى لى شاى, السمك كان تقيل, ولو عندك لسه كيك من بتاعت إمبارح هاتى لى طبق ..

ولا اقولك اعملى كيكة تانية واظبطى السكرالمره دى.

شعرت أنه يحاول الهاءها بالمزيد من الأعمال حتى لا تفكر, ولا تناقشه

قدمت له الشاى مع الكيك , ثم نامت ولم تتناول الطعام .

نامت طويلاً عصر ذلك اليوم وعندما استيقظت رأت المساء يغطى كل شئ كستار بالى يكسو السماء تطل من ثقوبه نجوم تستحي من ذلك الثوب القديم .

كان الهواء خانقاً لزجاً محملاً برائحة سجائر زوجها التي تهيج جيوبها الأنفية

فكرت أن تطفئ عقلها وتتركه حتى تحتفظ برأسها جميلاً لا تشوهه الأفكار .. ولكن كيف؟

هل تتناول حبوب الهلوسة ؟

وتدخل جنة ما وتركض حافية القدمين بلا توقف ثم تقوم بعد ذلك سعيدة تضحك لأتفه النكات.

قامت إلى دولابها وأخرجت صندوق الذكريات كما كانت تسمية،

علبة من الخشب المطعم بالصدف بها خاتم من الذهب كبير كان لجدتها أم والدها أعطته لها يوم زفافها كان خاتما ثقيل الوزن كثقل جدتها على قلبها به فص من العقيق .

يومها قال والدها :

– لابد أن عزة عزيزة عليك يا أمى حتى تعطيها هذا الخاتم .

– عزة شبهى عنيدة وجدعة.

وجدت خاتم والدها الفضى أيضاً .. لم يخلعه إلا يوم وفاته فاخذته هى .

لم تغضب أى من شقيقاتها عندما ترك لها والدها أشياء كثيرة ، منها إدارة المتجر حتى تحتفظ بنصف أرباحه والنصف الثانى يوزع على الشقيات السبع بالتساوى. ربما تذمر بعض الأزواج لكن الجميع كان على علم بما قدمته عزة لتلك الأسرة ،

فقد حملت هم الجميع

كان والدها يقول للذكر مثل حظ الانثيين وأنا لا أعتبر عزة مجرد بنت فهى إبنى البكرى ، أدارت المتجر معى وتقاعدت أنا وقامت هى بالحفاظ عليه.

لم تنم عزة طيلة عمرها أكثر من أربع ساعات, منهم ساعة قبل العصر كانت دوماً حريصة عليها.

أخرجت صور والدها ووالدتها وصورتها وهى طفلة, كانت دوماً تعلو وجهها تلك النظرة الحزينة,

لكنها كانت تنعم بالرضا عن نفسها .. مات والدها ووالدتها وهم راضون عنها, وماتت حماتها وهى تدعو لها.

رن هاتفها المحمول كما يرن كل ليلة في نفس الموعد يرن الهاتف ولا يرد المتصل ويظل تاركاً الخط مفتوح.

كانت كل ليلة تنهره ويظل يواصل الإتصال بها ، شعرت بأُلفة مع المتصل، ربما هو مثلها لا يجد من يحدثه.

فكرت أن تتحدث معه وتحكى له عن حياتها.

طردت الخاطر سريعا من نفسها، ربما يعرفها هذا الشخص, وبالتالى سيعرف أخبارها وأسرارها , وقد يبتزها أو يشهر بها .. أغلقت الهاتف ، ثم عاود الإتصال.

قالت بصوت منخفض :

– إنت عايز منى إيه بس يابن الحلال ؟ إتقِ الله

ثم أغلقت الهاتف..

خرجت من حجرتها تتجول في الشقة الكبيرة ..

عندما تزوجت كانت كل تلك الحجرات فارغة عكس قلبها الذي كان مملوءً بالآمال والأحلام والأمنيات السعيدة.

الآن امتلأت الحجرات وأصبحت هى فارغة..

لم تنجو نفسها مما مر بها فى حياتها, تُخفى الملل دوماً خلف ابتسامتها الباهتة.

خلال ست سنوات رُزقت بأبنائها الأربعة وفرشت لكل طفل غرفه مستقلة, كما فرشت لهم عمرها كله, وأعطتهم كل ما تملك من حب وحنان واهتمام .. بذلت نفسها لإسعادهم.

لكن فقدانها للمشاعر إرتسم بؤسا فى ملامح وجهها، عينيها كانت كزهرتين ذبُلتا لطول بكائها السري .

إطمأنت إلى أن الجميع قد ناموا ، تخيلت نفسها كقطرة مطر نزلت من السماء شفافة رقيقة لا تحمل أي سمات لا لون ولا طعم ولا رائحة ، ولكن عندما بدأت تسقط بدأت تكتسب السمات والملامح, فقدت الشفافية وبدأت تتلون بلون الواقع,

تقسو حيناً, تتجمد حيناً, تغلي أحياناً.

حزنت تلك القطرة لما أصابها من التغير، فقررت ألا تكون سلبية وأن تتدخل وتغير واقعها، إنتقلت إلى مكان أكثر دفئاً وكانت تلك القطرة تعتزم أمرًا.. قررت أن تتبخر وفعلاًتم ذلك .

شعرت بالخفة فأصبحت سعيدة .. ولكن سعادتها لم تدُم طويلاً .. فقد عاودت الحياة لعبتها مرة أخرى وأعادتها بقسوة إلى حالتها السائلة لتسقط مرة أخرى ،

هكذا نحن كقطرات المطر نُولد انقياء أطهاراً ثم تعترينا خطوب الحياة فنتلون بلون الواقع .

ثم توجهت لحجرتها وقامت بتأدية صلاة قيام الليل، وظلت تدعو الله أن يزيح عنها ما تعانيه هذه الأيام من أعراض غريبة,

فقد كانت تُصاب بحرارة شديدة تكتنف جسدها كله وتجعلها ترتعش وتتصبب عرقا .

كل الناس حولها يشعرون بالبرد في شهر طوبه أما هي فتعانى من الحر الشديد .. ثم تهدأ الحرارة فجأة كما بدأت فجأة .. وهناك ثمة أعراض أخرى.

ربما إضطراب دورتها الشهرية هو ما يسبب لها هذه المعاناة ،

الأغرب أنها فجأة صارت تشعر بالغربة والوحشة, شعرت أن أبناءها تلك الطيور الصغيرة التي كانت

تلتصق بها لتطعمها .. قد كبرت ولم تعد تحتاج لحضنها .

الوحدة نعم الوحدة هى ما تعانيه .. وحيدة في بيتها وحيدة داخل نفسها ،

ابنتها "إيمان" طالبة الطب, ومحمد ومصطفى التوأم في كلية الهندسة , والصغرى "أروى" في الصف الثالث الثانوي .. أصبح لديهم حياة وأصدقاء ،

حتى جارتها زينب التي كانت صديقتها الوحيد .. قامت ببناء "فيلا" كبيرة في حي ٦اكتوبر وإنتقلت إليها ، وشقيقاتها كل واحدة مشغولة بزوجها وأبنائها.

عاودتها الرعشة والحرارة الشديدة وهي تقف في طابور الصباح ، كتبت توكيل لناظر المدرسة بإدارة المدرسة في غيابها وعادت إلى البيت .

فى الطريق كانت ترى قطرات الندى فوق الأوراق تتساقط لتروي ظمأ الوادي الفسيح، والطيور التي باتت في السماء كأنها تهبط لتلتقط بذور الشر من نفوس استيقظت والأمل ينمو بداخلها ،

وجدت إبنتها "إيمان" تذاكر

– إيمان انتى هنا ؟!!

– اه يا ماما رجعتى بدرى ليه ؟!!

– اناتعبانه شويه يا بنتى.

– مالك ؟

– بعرق، عرق شديد وبتعب قوى.

– عادى فى سنك ده.

– يعنى ايه ؟

– دى أعراض سن اليأس وملهاش أي علاج،

كانت صدمة شديدة أن تسمع تلك الكلمة بهذه القسوة من ابنتها فحاولت السيطرة على ملامحها.

دخلت ايمان حجرتها تحمل معها برودها وتعاليها وغرورها.

كانت تعلم أنها تمر بهذا الأمر , ولكن لا أحد يشعر بها . دخلت حجرتها شعرت أن الجدران تتجمع وتسقط فوق رأسها . انتابها دوار شديد, عندما أفاقت . وقفت أمام مرآتها تحدث نفسها

أنا عزه القوية الجميلة مررت طوال عمري بأشياء كثيرة , لم يهزمني إلا جسدي

أحياناً أشعر أني طفله تحتاج إلى الحب والحنان, وأحياناً أشعر أنني مراهقة.. رحمك الله يا أمي ، أخذت "إيمان" جمال وجهك ولكن قلبها قاسى كوالدها ، تساءلت .. هل أذهب لطبيب نفسي ؟

عاد رنين الهاتف نفس الرقم المجهول

قالت سأسالك سؤالاً واحدا وأرجو أن تجيب عليه :

– هل تعرفني ؟؟

لم يرد..

تذكرت أن هذا الرقم لا يعرفه أحد وضعته في الهاتف عندما اشترت محمول بخطين، حتى زوجها وأولادها لا يعرفون رقمه .

إذاً فلتطمئن وتحكى له.. تمددت على أريكتها

وقالت للمتصل :

– سأعتبرك طبيب نفسي وأقص عليك قصة حياتي.

الفصل التاسع

حرب الايام الستة

عارف إن أنا أتولدت يوم النكسة وإتجوزت يوم الزلزال، إيه رأيك في البداية دى،

عارفه هتقول عليَ نحس لكن بين التاريخين دول شفت كتير وعانيت كتيرقوى .

النكسة كانت شئ بشع على مصر كلها لكن إحساسي إنى نحس .. إتولدت والبلد إتهزمت وإتعرضت للإحساس ده طول عمرى

كانت صديقاتى بياخدوا تاريخ ميلادى مادة للسخرية .

معرفش انت كبير ولا صغير وعندك فكرة عن ايه حصل يوم ٥ يونيو عام الف وتسمعائة وسبعة وستون ولا لأ ..

كانت الدنيا بتسميها حرب الأيام الستة وإحنا فى مصر بنسميها النكسة, شعب بيحب يدلع كل شئ معرفش ليه.

إهتميت طول عمرى بدراسة الأيام دى إهتمام غير عادى بما إنك بتفتح الخط بالساعات خليني أراجع معاك معلوماتى التاريخية .

فى اليوم الأول من الأيام الستة للحرب

قبل الهجوم الجوي قامت قوات إسرائيلية بهجوم في الساعة السابعة والنصف صباحا من يوم ٥ يونيو على المحور الأوسط بسيناء وإحتلت موقعاً متقدماً في منطقة "أم بسيس" الأمامية، وقد سبقت ذلك تحركات في إتجاه العوجة ليلة ٥ يونيو .. لم تبلغ القيادة العليا، بل علم بها قائد المنطقة الشرقية ظهراً بعد فوات الأوان وكان الرد عليها كفيلاً بتغيير الموقف.

أرادت عزة إختبار صبر المتصل الغامض فإستمرت فى وصف أحداث المعارك .

قامت إسرائيل في صباح الاثنين ٥ يونيوولمدة ثلاث ساعات بغارات جوية على مصر في سيناء والدلتا والقاهرة ووادي النيل في الثلاث موجات الأولى.

انطلقت في أعقاب الضربة الجوية الإسرائيلية مباشرة

تشكيلات القوات البرية الإسرائيلية تخترق الحد الأمامي للجبهة المصرية في سيناء بثلاث مجموعات ،

وفي ساعة متأخرة من المساء إستطاعت بهجومها على المحاور الثلاثة الشمالي والأوسط والجنوبي تدمير فرقتي مشاة النسق الأول، السابعة والثانية، التي كان يرتكز عليها النظام الدفاعي لمصر.صباح يوم ٦ يونيو

سقطت العريش وانفتح المحور الشمالي أمام القوات الإسرائيلية المدرعة.

كان على القوات المصرية في وسط سيناء مواجهة ثلاث مجموعات عمليات، وظهرت في هذا اليوم الذي تركزت فيه

العمليات على الجبهة المصرية مع وقف إطلاق النار على الجبهة الأردنية بوادر الانهيار التام للقوات المصرية وقرب وصول القوات الإسرائيلية إلى قناة السويس.

مع قرب وصول القوات الإسرائيلية إلى قناة السويس بدأت في هذا اليوم الإستعدادات للدفاع عن القاهرة من مدخلي السويس والإسماعيلية.

وجرى حديث بين السوفييت والرئيس المصري جمال عبد الناصر عن وقف القتال على الجبهة المصرية في الوقت الذي شكلت فيه الوحدات المصرية المدرعة المتبقية سدا دفاعيا وسط سيناء،ولكن مع قبول مصر وقف إطلاق النار كانت قد إنهارت الدفاعات المصرية المتبقية شرق القناة وبدأ الإرتداد العام والإنسحاب من سيناء.

اليوم الخامس ٩ يونيو

قامت القوات الإسرائيلية في هدوء باحتلال سيناء كلها حتى شرم الشيخ بإستثناء الخط من رأس العش شمالاً حتى شرق بور فؤاد الذي ظل تحت سيطرة القوات المصرية. وصدر قرار مجلس الأمن للتأكيد على وقف إطلاق النار، بينما أعلن الرئيس جمال عبد الناصر في أعقاب هذه الخسارة تنحيه عن السلطة

اليوم السادس ١٠ يونيو

بتنحي الرئيس عبد الناصر إستقال عبد الحكيم عامر ووزير الحربية شمس بدران، وخرجت مظاهرات شعبية ترفض قبول تنحي الرئيس وطالبت بعودته فوافق عبد الناصر على ذلك وعاد إلى الحكم..

خسر العرب في هذه الحرب المزيد من الأراضي لصالح إسرائيل، أما الخسائر الميدانية والعسكرية للحرب فغالب بياناتها قد تضاربت لإعتبارها معلومات سرية.

فور إحتلالها لسيناء عام ١٩٦٧ شرعت إسرائيل على الفور في نهب آبار النفط لسد إحتياجاتها المحلية والإستفادة من المطارات والقواعد الجوية التي كانت موجودة آنذاك ووضع أجهزة إنذار على الجبال والمرتفعات وإقامة خط دفاعي على الضفة الشرقية لقناة السويس عرف باسم خط بارليف،

هذه الأمور مجتمعة أفادت اسرائيل عسكرياً وإستراتيجياً, فحسنت من قدرتها على المناورة بقواتها، وأصبح بمقدورها مهاجمة مصر في العمق فطالت طائراتها الكثير من المنشآت العسكرية والمدنية والإقتصادية (مطارات، مصانع، مدارس،.. إلخ)

إلى أن تمكن الجيش المصري بالتعاون مع الجيش الجزائري الذي دعم القوات المصرية بالطائرات والمدافع والجند وذلك بمشاركة الرئيس الراحل هواري بومدين وبالتعاون مع الجيش المغربي الشقيق الحد من هذه الهجمات وذلك بعد

تمكنه من بناء حائط صواريخ على القناة بمساعدة الإتحاد السوفياتي.

لقد كان إصرار مصر على تسخين الجبهة عقب توقف القتال مباشرة تجسيداً حياً لرفض الهزيمة، وتعبيراً عملياً

عن عقد العزم على إزالة آثار العدوان، ولما لم تكن قواتها المسلحة قد إستعدت بعد لخوض حرب جديدة، فلم يكن أمامها إلا أن تمارس الإستنزاف .

من الواضح أن الغاية من إدارة مصر لحرب الإستنزاف هو توريط إسرائيل في قتال نشط طويل المدى يتضمن أشكالاً مختلفة من الصراع المسلح، يعلو على مستوى الحرب الكاذبة، ويهبط عن مستوى الحرب الكاملة، ويتدرج في الشدة واللين تبعاً للفرص السانحة والظروف المحيطة بالمسرح".".

قد تعجب من حفظى للمعلومات دى, احفظها كما احفظ اسمى .. ربما لأن تاريخ ميلادى يوافق هذا اليوم .. وربما لان خالى استشهد فى يونيو سبعة وستين وكان الاخ الوحيد لأمى .. استشهد يوم ٨ يونيو بعد ولادتى بثلاثة ايام .. واستشهد عمى فى حرب الإستنزاف عام تسعة وستين

وزوج خالتى استشهد فى حرب اكتوبر , كان التاريخ الحربي الحديث لمصر يولد معي

تحب أكملك حكاية الحرب؟

سمعت همهمه مشجعة فعلمت أنه مستعد للإستماع فاكملت...

في الوقت اللذي كان بيتم فيه إعادة بناء القوات المسلحة، كان التخطيط لأعمال القتال يسير بخطى ثابتة، تتماشى مع نمو قدرات القوات التي بدأت تتغلب على المصاعب التي

تواجهها واحدة تلو الأخرى، وتعمل بجهد مستميت للدفاع عن منطقة القناة.

وفي الوقت نفسه، كان لا بد من القتال ضد القوات الإسرائيلية حتى تدفع ثمناً غالياً لإستمرارها في إحتلال سيناء حتى يأتي اليوم الذي يتم فيه تحريرها بالقوة.

كان من الضروري أن يبدأ الصراع المسلح ضد إسرائيل بمرحلة أطلق عليها مرحلة "الصمود"، إنتقلت بعدها القوات إلى مرحلة أخرى سميت "الدفاع النشط"، ثم تطور القتال إلى مرحلة جديدة تصاعدت فيها حرب الإستنزاف لتصل إلى قمتها.

مرحلة الصمود : كان الهدف منها هو سرعة إعادة البناء، ووضع الهيكل الدفاعي عن الضفة الغربية لقناة السويس، وكان ذلك يتطلب هدوء الجبهة حتى توضع خطة الدفاع

موضع التنفيذ بما تتطلبه من أعمال كثيرة وبصفة خاصة أعمال التجهيز الهندسي وإستكمال القوات وتدريبها.

مرحلة الدفاع النشط : كان الغرض منها ـ على ضوء تطوير التسليح وبناء الدفاع ـ هو تنشيط الجبهة والإشتباك بالنيران مع العدو بغرض تقييد حركة قواته في الخطوط الأمامية على الضفة الشرقية للقناة، وتكبيد العدو قدراً من الخسائر في أفراده ومعداته.

بعد ذلك جاءت المرحلة الأخيرة بتصعيد القتال للقمة من خلال عبور بعض القوات والإغارة على الدفاعات الإسرائيلية، من أجل تدمير تحصيناته وتكبيده أكبر قدر من الخسائر في الأفراد والمعدات وإقناعه بأنه لا بد من دفع الثمن غالياً للبقاء في سيناء، وإنتهت هذه المرحلة في أغسطس عام ١٩٧٠

عندما توقف إطلاق النار بُناءً على مُبادرة أمريكية والمعروفة باسم "مبادرة روجرز"

وأثبتت حرب الإستنزاف أن قوة صمود مصر وتحملها وقوة إرادتها وتمسكها بهدفها الأسمى، كانت هي العناصر الأساسية، التي أعادت الثقة بعد أن كادت نكسة يونيه ٦٧ تقضي عليه .

عموما انا تعبت كفاية كدا .

وأغلقت الهاتف .

الفصل العاشر

ام البنات

جاءتها رساله من رقم المتصل المجهول كتب فيها

" من فضلك كملى أنا سعيد إنى بسمع لتاريخ لم أعشه من قبل وحضرتك بتحكيه ببساطه وسلاسه برغم إنك كنتِ طفلة فى ذلك الوقت أرجوكِ اكملىِ .. سأتصل الان"

إتصل ثانية فلم ترد ..

قامت بجولة فى البيت, الساعة لازالت الحادية عشرة وأولادها فى حجراتهم بيذاكروا وماهر بيتصفح احد المواقع الإلكترونية .. فعادت إلى حجرتها وعندما إتصل مرة أخرى ردت عليه وأكملت حكاية الحرب.

– كانت حرب الإستنزاف ليها أهداف كثيرة جداً .. أهم الأهداف التي حددتها القيادة المصرية عندما خططت لحرب الإستنزاف، متماشية مع ما وصلت إليه القوات من الثقة بالنفس، ما جعلها قادرة على الدفاع عن نفسها وعن الوطن،

مع إنزال أكبر الضربات وأوسعها مدى بالعدو، والقدرة على إستيعاب الضربات التي يمكن أن يوجهها العدو إليها.

كانت هذه الحرب تهدف – بصفة عامة – إلى إستنزاف العدو مادياً وعسكرياً ومعنوياً، بتدمير قواته وإلحاق أكبر قدر من الخسائر البشرية، وبالتالي دفع الثمن الذي سيتحمله طالما بقى محتلاً للأرض.

وفي الوقت نفسه، عدم ترك الفرصة لكي يثبت مواقعه ويدعم تحصيناته، خاصة بعد أن بدأ في إقامة ما يسمى بـ "خط بارليف".

كذلك، كانت تهدف بصفة أساسية إلى التدريب العملي والواقعي للقوات المسلحة في ساحة القتال الفعلية، وتنفيذ عمليات عبور متنوعة إستعداداً لتحرير الأرض، مع إقناع المجتمع الدولي والعدو أن مصر لا تنوي، تحت أي ظرف

من الظروف، التخلي عن حقها في استرداد سيناء، وحقها في تحرير أرضها

إن ممارسة حرب الإستنزاف كان هدفاً يخدم مصالح العرب، السياسية والعسكرية، بينما يضر بمصالح إسرائيل، التي كانت حالة اللاسلم واللاحرب تحقق لها هدف ترسيخ الأمر الواقع في المسرح العالمى، وتنعش آمالها برضوخ العرب في آخر المطاف.

شفت إزاى يوم ما أتولدت الدنيا إستقبلتنى أحسن إستقبال ..

و أمى كانت حزينة لأنى بنت كان نفسها أول خلفتها يكون ولد.

أبويا كمان كان ساكت ولما حد يسأله انت زعلان ليه يقول بسبب حال البلد والنكسة .. واهى أرزاق.

جدتي أم أمى كانت بتعزيها وتقولها:

– على رأى المثل يابنتى قبلنا قالوا اللى يسعدها زمانها تجيب بناتها قبل صبيانها.

أما أم أبويا كانت بتولول لأنها صعيديه بتحب الأولاد, وفضلت تولول كثيراً .. لأن أمي كانت كل سنه بتخلف بنت لحد ما بقينا ست بنات.

كأننا ست حقائب ثقيلة يحملها أبي فوق ظهره ، وست ذنوب تتحمل أمى وزرها بمفردها ولا تستطيع التوبة عنها.. ذنوب ليس لها توبة ولا كفارة

أتذكر بعض المشاهد من طفولتي ..

كانت أمى تحمل أختي الصغيرة وتغنى لها:

– لما قالوا دى بنيه قلت رزق وفرحه جايه .

فترد جدتى :

– لما قالوا ده ولد إتشد ظهرى واتفرد .

فيمتقع وجه أمى وتحتضن اختى الصغيرة, بقلب ينزف قلقا ولسانا يصرخ التماسا من الله أن تدعها تلك العجوز فى حالها .

لكن إنقضاضات جدتى كانت لا تهدأ, فتمنحها أمى الصمت ليزيد إستمتاع جدتى بطحن أمى تحت ضرسها

كانت تجلس دائما على نفس المقعد فى وضع هجوم متحفزة تضع يديها على ساقيها المنتفختين تستخرج إحدى عظام أمى وتبدأ تلوكها فى إستمتاع .

كانت جدتى حين تنام تضع طاقم اسنانها فى كوب من الماء وتلبسه صباحا

ظننت دوماً أنها تُخرج لسانها طيلة الليل وتظل تشحذه كسكين لتقطع به أوصالنا.

إلحاحها المستمر أن تأتى بامرأة من قريتها لتختننى كان غريباً لم أكن أعلم ما هو الختان ولكن لأن الإقتراح كان من جدتى كنت متيقنه أنه شر كبير .

كانت أمى تماطل لأنى لم أكن قد أكملت الثامنة من عمرى وجسمى نحيل لا يحتمل تلك التجربة

حزماً للأمر.. جاء أبى بطبيبة فأكدت كلام أمى وقالت :

– لو مُصمم يا حج انتظر عامين كاملين .

بعد عامين وتحت الحاحها أيضاً, ذهبنا للطبيبة ومعنا أختاى الأصغر منى

أجرت الطبيبة الختان لأختى الوسطى وقالت أننى وأختى الصغرى لا نحتاج للختان

هنا إنفعلت جدتي وإرتفع صوتها, ولذلك بعد إنصراف الطبيبة مُحملة بإعتذرات أمى وأبى .. أشعلت جدتي

الحرائق فى البيت ولم تهدأ إلا بذهابنا لقريتها لإجراء الختان ذلك الشئ البشع.

كنت أنام على فراش فى بيت جدتى أنظر الى لحمى الأبيض كلحم دجاجة ذبيحة هربت منها الدماء مخضوضة والآلام تكاد تقتلنى .

أنظر لشقيقتى التى تصغرنى فأراها تسبح فى بركة من الدماء نائمة فى هدوء كأنها فى ملكوت أعلى .. سمعت صراخ أمى ثم غبت ثانيةً عن الوعى

إستيقظت فى إحدى المستشفيات القريبة, كانت شقيقتى نائمة ينقلون لها الدماء من أبى .. أما أمى فكانت ملقاة تحت أقدامنا كقطعة قماش لا حول لها ولا قوة .

لم يكن مشهد الذبح هذا أخر جرائم جدتى فقد ظلت جدتى تلح على أبي حتى يتزوج من تنجب له الولد، وفعلاً تزوج أبى من جارة لنا أرملة أولادها كلهم ذكور.

يوم زفاف أبى لجارتنا كانت جدتى تفتخر بكسر ناب أمى وتعليقه فى سلسلة فى رقبتها.

لكن الجارة أنجبت بنتين فصار عددنا ثمانيه .

ثم تزوج أبى الثالثة بكراً أنجبت الولد لكنه ولد ميتا فتشاءم أبي وطلقها.

كان أبى لا يشعر بالراحة إلا مع أمى .

كان أبي قوى الشخصية إلا أمام أمه.. كان أمامها كالطفل الصغير لا يرد لها طلباً ولا يرفع عينه فى وجهها حياءً

فلا يستطيع أن يُمازح أمى أو يُدلل اى واحدةٍ منا فى حضورها .. فهى تعتبر تدليل البنات مَفسدة وتؤدى الى الإنفلات وضياع هيبة الأب

فالرجل فى نظرها لابد ان يكون غاضباً دوماً عابساً فى وجه زوجته حتى لا تركبه وتسيطر عليه .. هكذا تربت .

للأسف إن سر مأساتنا نحن النساء السبب فيه بعض النساء من أمثال جدتى .

بسببها صرنا ثمانى فتيات وطلقت امرأتان تزوجهم أبى لمجرد إنجاب الولد .

هل الجهل هو سبب قسوة جدتى ؟

هل كانت تغار من امى؟ ما الفرق بين الولد والبنت؟

الم يخلق الله الذكر والانثي؟

نقلت هذه التساؤلات الى إحدى المعلمات فى المدرسة فقرأت لى المعلمة الاية الكريمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

"يهبُ لمن يشاءُ إناثا ويهبُ لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعلُ من يشاء عقيما "

قرأت الآيات فى البيت وبصوت مرتفع, فنهرتنى جدتى ..قلت لها :

– أريد أن أحفظها, إشرحيها لى يا جدتى

قالت جدتى :

– خلى أمك الشملولة تشرحها لك

قال ابي :

– تعالى يا عزة انا اشرح لك الآيات .. يعنى يا بنتى الأولاد دول رزق من عند ربنا فيه ناس ربنا رزقهم بأولاد بس

قالت جدتى بفخر :

– تمام زى عمتك سعده عندها خمس أولاد في عين العدو

أكمل أبي :– وفى ناس عندهم بنات وصبيان .. زى خالتك فاطمة وخالك محمود كل واحد عنده ولدين وبنتين

تنهدت جدتى بغيظ فأكمل أبي :

– وفى ناس خلفتهم بنات بس زيى أنا

ردت أمى :

– وفى ناس لاعندهم بنات ولا اولاد زى عمك مصطفى ... اللهم لا إعتراض ولا مانع فى حكمك يارب.

– ماهو علشان كدا نفسي فى ولد يحمل اسم العيلة ويشيل هم البنات يا بتى

أحضرأبي الفتاتين الصغيرتين واشترى لنا بيتاً واسعاً إنتقلنا إليه وإفتتح متجراً كبيراً للمينى فاتوره في حى الموسكى وإتسعت تجارته وعشنا عيشة رغدة سعيدة ،

وعادت جدتى إلى الصعيد كشجرة بلا جذور لم تكن تطيق أن ترى أمى تبتسم وهى عندها ست بنات.

الدهشة والإستنكار كان يتعانقان فى وجهها عندما ترى أبي يدلل أمى ويحنو علينا..

كانت أمى تبتسم فى سادية لتكمل حرق أعصاب جدتي

كانت أمي سعيده بعودة أبى إليها .. فكانت تُكرم أخوتى أبناء ضرتها وتعاملهم أفضل معاملة

الفصل الحادى عشر

فى الموسكى

أحببت حياتنا الجديدة, وكنت دوماً أصحب أبي لمتجره بالموسكى .. حكى لى أبى كثيراً عن تاريخ هذا الحى

قال إن هذا الحى سُمى هكذا لأنه كانت به قنطره أقامها الامير مؤسك من أقارب صلاح الدين الايوبي فى هذا الحى

مبانى حى الموسكى الجميلة تلك المباني ذات الطابع المعماري الفرنسي والبلجيكي المميز والتي أُنشئت في عهد الخديوي إسماعيل تأثراً بالعمارة الأوروبية .. خاصةً الفرنسية منها والتي كان الخديوي يعشقها

ومن أمثلتها ,, إدارة الدفاع المدني والحريق , ومبنى هيئة البريد, ومبنى قسم الشرطة, وكذلك مبنى مديرية الشئون الصحية لمحافظة القاهرة .. والذي كان مقراً لصندوق الدين الذي فرضته أوروبا على الخديوي ليراقب الأنفاق المصري آنذاك, وأيضا تياترو الخديوي (المسرح القومي الآن) , كما كانت دار الأوبرا المصرية والتي إحترقت عام ١٩٦٨ م, ومقر

المحكمة المختلطة خلف الأوبـرا والتي أُزيلت أيضا عند إنشاء جراج الأوبرا

و هناك العديد من العقارات ذات الطراز المعماري الفريد .. مثل عمارة تيرنج بسوق الجوهري والتي يعلوها كره يحملها أربعة ملائكة .. وتعتبر تحفة فنية وأثرا تاريخيا يستحق الحفاظ عليه.

والحفاظ على آثارنا كقيمة تاريخية وإبرازها في أزهي صورها اللائقة بقاهرة المعز لدين الله الفاطمي

و أيضا مبنى لوكاندة البرلمان .. الذي تحول للأسف إلي مول تجارى, وكذلك العديد من العقارات ذات الطابع التاريخي والطراز المعماري الفرنسي بشارع القلعة وشارع عبد العزيز وغيرها

الجدير بالذكر أن شارع الموسكي بقاهرة المعز كان قديماً يُباع ويُشتري وترجع ملكية نصف الشارع إلي عائلة سلاطين التي توطنت بمصر وعاشت بها

وبالشارع الكثير من المقاهى الشهيرة .. كان من أهم المقاهي التي كانت موجودة بحي الموسكى مقهى ماتاتيا خلف دار الأوبرا القديم (جراج الأوبرا حاليا) وتم إزالتها عند إنشاء الجراج وأنشئت في موقعها (حديقة ماتاتيا الآن) هذا المقهى كان ملتقى للثوار الذين مهدوا للثورة العرابية حيث كان يلتقي فيه صفوة شباب مصر حول الثائر جمال الدين الأفغاني

وأيضا مقهى الندوة التجارية بشارع بور سعيد والذي يرتاده كبار التجار منذ مئات السنين

و مقهى الفنانين بشارع القلعة (محمد على سابقا) ومقهى التجاريين بشارع المرخم من شارع القلعة ذات التاريخ

العريق وبه الكثير من المحال التجارية والتي أقيمت على غرار المحال الكبرى في باريس حيث محل سَمعان صيدناوى ومحل عمر أفندي والبيت المصري وداوود وعدس

في حي الموسكى المساجد الأثرية ذات التاريخ العريق والكنائس ذات الطراز الفريد والمعابد اليهودية ومن المساجد الأثرية نجد مسجد العزبانى ومسجد الرويعى والجامع الأحمر وجامع البكري ومن الكنائس المسيحية ولكل مذهب نجد كنيسة الأقباط الأرثوذكس وكنيسة الأرمن (الغرغورى) وكنيسة الإفرنج الكاثوليك وكنيسة الأرمن الكاثوليك

ومن المعابد نجد المعبد اليهودي القابع بشارع الجيش متوسطا للمسافة بين شارع الجيش وشارع الموسكى.

و يشتهر السوق العريق بإزدحامه طوال أيام الأسبوع بالزوار من الفتيات والنساء، خاصة من يتأهبن للزفاف، فلا

يمكن لعروس مصرية ألا تبتاع إحتياجاتها من الموسكى، ففيه كل شيء يخصها،

لينطبق عليه قول (من الإبرة للصاروخ)، كناية عن توافرمن أصغر المستلزمات إلى أكبرها.

كل شيء موجود

بالموسكي شوارع متخصصة في بيع الإلتزامات المنزلية مثل حمام الثلاثاء، وشارع السبع قاعات القبلية والمخصص للمفروشات المنزلية بأسعار الجملة،وشارع السمك للأقمشة. وفيه شارع كامل للأدوات الكهربائية بأسعار رخيصة، وبه أيضا حارة مخصصة للنجف وهي درب البرابرة، ينتهي الدرب بشارع كمال الحسيني، والذي ينتهي بمسجد الشيخة سميحة الحسيني، لتجد نفسك إقتربت كثيرا من خان الخليلي.

ولا يمكن أن تذهب للموسكي دون أن تمر بمحلات العطارة في شارع المعز لدين الله الفاطمي، فهناك تجد أنواع من

الأعشاب قد لا تكون سمعت عنها من قبل، فهناك أشهر المحلات مثل أكاديمية خضر العطار أو حمزاوى الصغير وغيرهم من العطارين، ومنذ دخولك حارة العطارة تشم رائحة البخور العطرة وهى رائحة موجودة في معظم المحلات بالموسكي تقريبا وليس العطارين فقط

فى الموسكى تشاهد الباعة المتجولين والمرتزقة ينتشرون أكثر من أصحاب المحلات، وفى هذا السوق أمور متداخلة لا يمكن لأحد معرفتها إلا من يعيش فيه، فأصحاب المحلات الكبيرة يأخذون مقابل من المال (أرضية) من الباعة الأصغر مقابل أن يفرشوا بضاعتهم أمام محلاتهم، وذلك لإرتفاع أسعار المحلات هناك.

في الموسكي تستمتع كثيراً بمشاهده الأكلات الشعبية كعربات المكرونة والمبار، والسيدة الجالسة على الأرض تبيع المحشى، والجميع يتسابقون عليها سواء من المصريين

أو حتى العرب الموجودين بالمكان، وبجوارها تجد بائع الترمس بعربته الخشبية والتي يزينها بالقلل الفخارية.

في ذلك المكان الكثير. مما يشعر أنك تعيش الماضي ..فتجد بائع العرقسوس بزيه القديم يتجول داخل المكان..وهناك المساجد الأثرية وعلى رأسها مسجد "الأشرف برسباي" الذي بني عام ٨٢٧ هجرية، وهو مسجد على الطراز الإسلامي وقبته روعه في الجمال.

وهناك لا تتعجب إذا رأيت بائعة بزيها الشعبي البسيط وبجوارها سائحة في غاية الأناقة تقوم بتصوير ما حولها وهي سعيدة بما تكتشفه عن مصر.

زبائن وتجار .. كنت دوماً تقابل فتاة مصرية إقترب موعد زفافها، إختارت الموسكى لشراء ملابسها .. حيث يوجد أشكال لا يمكن أن تجدها في أي مكان آخر، تؤكد لو أن معها ١٠٠ جنيه سوف تشترى من الموسكى أكثر من شئ، في حين

لو ذهبت لأحد المحلات في أي مكان آخر فلن يكفى المبلغ شراء شئ أو أثنين!

سمعت صاحب أحد المحلات، يقول : "أعمل في تجارة الأقمشة أبا عن جد، ومعظم من في هذا السوق مثلي .. هنا لا يمكن ألا تجد طلبك مهما كان، بل وبأرخص الأسعار، حيث أننا نأخذ البضاعة من المصنع ونقوم بتوزيعها على المحلات في القاهرة، حتى في وسط البلد والأحياء الراقية مثل الزمالك والمهندسين."

وقال تاجر آخر أن زبائن السوق من كل أنحاء العالم وليس مصر وحدها،

فمنذ بداية دخولك للمكان تجد ترحيباً من الباعة ويساعدونك للوصول للمكان الذي تريده بسهوله، وذلك لتعدد مداخل وحارات هذا الحي.

الفصل الثانى عشر

عريس الغفلة

مرت بنا السنوات حتى كبرنا ودخلت الجامعة كان أبى سعيداً لإلتحاقى بكلية التربيه ورفض دخولى كلية الهندسة برغم مجموعى الكبير

فقد كان يرى أن كلية التربية مناسبة للبنت أكثر من الهندسة

كانت كلمات أبي هذه صدمة لى. لم أقدر حينها على الإتيان بردة فعل تذكر ، فقد تبدد أملى فى أن أصبح مهندسة

لذلك أخترت قسم الرياضيات في كلية التربية وتفوقت في دراستى.

كنت دوماً متفوقة, منظمة ربما لأثبت لأبى أننى لا أقل عن الولد , يومى مقسم بين الجامعة والمذاكرة وأحرص دائما على تواجدى بالمحل كل يوم لأقوم بمراجعة الحسابات مع والدى , فلم يشعر أنه يحتاج لولد بجانبه

أما أعمال البيت فقد تركتها لشقيقاتى فقد كان همهن مشاهدة التليفزيون والوقوف أمام المرآة, والإهتمام بالموضة , لذا كنّ متعثرات فى دراستهن

هدى وإيناس كنَّ يحلمن بالزواج والبيت, أما الدراسة والمذاكرة فكانت أخر ما يُفكرنَّ به

أصابتهن لعنة الثانوية العامة. الثانوية ذلك البعبع المخيف الذى لا يقبل نقض ولا إبرام،

لم تكن الثانوية مثل هذه الأيام فيها دور ثان وإختيار للمواد

لذا تكرر الرسوب وبدأ توافد الخطاب على البيت ,,

لكنهم كانوا يختارون واحدة من شقيقاتى واُترك أنا كزهرة صبار لم يأتى وقت قطافها

وكان أبى ينظر لى نظرة حزينة قائلا :

– إنتم تمانية إتحملى يابنتى لازم أزوجهم

يوم تخرجى كان زفاف شقيقاتى هدى وإيناس في ليلة واحدة ، بعد إنتهاء الفرح جاء أبي وأمى إلى حجرتى فوجدانى أبكى

لقد كانت الحجرة بها سريرين واحد لى والسرير الآخر لإيناس وهدى كنت أشعر بفراغ بدونهن وأشعر بالوحشة، ظنت أمى أنى حزينة فقالت :-

كان لازم نسمع كلام أمك ومتوافقش تزوج الصغيرة قبل الكبيرة

قال أبي :

- هحكى لك حكاية .

"كان فيه ساحر له ثلاث شقيقات جميلات , فى يوم من الأيام تعرف الساحر على بطل من أبطال المبارزة طلب هذا المبارز من الساحر أن يزوجه واحده من شقيقاته, لكن الساحر قال

إذا زوجتك إحداهن شعرت الشقيقتان بالحزن .. لذا علينا أن نذهب إلى أحد البلاد التى توافق أن يتزوج الرجل من أكثر من أخت ..

سار الساحر والمبارز والشقيقات الثلاث أعواماً وأعوام ولكنهم لم يجدوا بلد قوانينها تسمح بذلك

قالت احدى الشقيقات :

– لماذا لم تزوجه إحدانا؟ كان من الممكن أن تسعد إحدانا على الأقل.

قال الساحر:

– لقد اخطأت بالفعل , ثم قام بتحويل الشقيقات إلى تماثيل من الصخر حتى يعلم من يمر بهن أن سعادة الانسان لا تعنى تعاسة الأخرين"

قالت أمى يعنى إيه نظر أبي لى وعلت وجهه ابتسامة حنونة وقبل رأسي وقال :

– يعنى عزة لسه فى الجامعة ومتفوقة وبكرة هتشتغل مدرسة وهتاخد نصيبها.

بعد تخرجى وإستلام عملى واصلت الدراسة حتى حصلت على الماجستير.

في السنوات التالية تكرر الأمر حتى تزوجت أربعة من شقيقاتى .

وبقيت هيام أصغر الشقيقات .. ودواليا ورانيا أختاى من الأب .. صغيرتان فى المرحلة الإعدادية

كنت أتوقع أننى سأقوم بزفهن هنّ أيضاً الى أزواجهن وأبقي أنا وحيدة مع أبي وأمى .

ما أدهشنى هو تصرف مديرة المدرسة التى أعمل بها فقد تقدمت لخطبة أختى الصغرى هيام لأبنها الذى يكبرنى بعشرة أعوام

هيام فاشلة في الدراسة عمرها 17 عام

ترى ماهى المقاييس التى يجب توفرها فى العروسة المطلوبة ،أن تكون جميلة وذكية وصغيرة السن لم تكمل العشرين ،هل لأنى تجاوزت الخامسة والعشرين يكون قد فاتنى قطار الزواج ؟

تعجبت كثيراً من أمر الأستاذه عفت المديرة لأنها تعرفنى جيدا وتثق بي ثقة مطلقه عندما قالت لى سنزوركم في المنزل

مالت وكيلة المدرسة على أذنى قائلة:-

- إستعدى إبنها ماهر رجع من الخارج بقاله عشر سنين في الكويت وعايز عروسة .. ولما المديرة سألتنى قلتلها هو في زى عزة .

عدت الى بيتى أكاد أن أطير من الفرح.

أخيرا سيتحقق حلمى وأرتدى ثوب الزفاف مثل كل البنات ,أخيرا سيدخل رجل غير أبي حياتى.

لم أعرف رجلاً من قبل, لم ألفت نظر أى رجل..

ربما لاننى هادئة قليلة الكلام

قالت لى شقيقتى:

– إنتِ أحاسيسك داخلية ووجهك هادئ وملامحك لا تعبر عما يدور بداخلك

فعلاً كنت انظر لوجهى بالمرأة فأرى وجهى **flat**

أخبرت أمى وشقيقتى هيام

كان البيت كله في حالة فرحة غامرة سألتنى هيام :

– إنتى شفتيه يا ابلة ؟؟

– لأ لكن شفت صورته في بيت المديرة لما كنت بزورها ، شكلو قمر أوى وعنده شنب يجنن

– شنب إيه القرف ده!

– قرف إيه إنتى لسه عيله مبتفهميش حاجه ؟

– ماشى يا أبلة عزه بكرة تشوفى العيلة دى هتزوقك ازاى ؟

– لأ أوعى زواق ايه.

– استنى بس شوية بودرة وروج اجو.

– روج ايه ياختى وانا بقول الملاحق دى سببها إيه

بعد قليل توافدت أخواتى الأربعة وأزواجهن وأولادهن حتى إمتلأ بيتنا عن آخره

وعندما جاءت أبلة عفت وابنها ماهر كنا على أتم الإستعداد

لاحظت ابلة عفت كل شيء حولنا وأن بيتنا ليس في وضعه الطبيعى فقد زارتنا من قبل ولكنها اليوم أصرت على أن يكون والدى موجوداً مما اعطى الزيارة طابعاً رسمياً

وكعادتها لا تحب اضاعة الوقت وتطرق الحديد وهو ساخن طلبت ابلة عفت يد أختى هيام لابنها

شعرت أن الإبتسامة قد تيبست على وجهي كأنما أصابتنى صاعقه جليديه وقشعريرة تجرى في أوصالى ولكنى حافظت على هدوئى وإبتسامتى تلك فقد تعرضت لهذا الموقف قبل ذلك أربع مرات، وهذه الخامسة .

كلاعب كرة يصوبها نحوالهدف ولكن لا يحرز هدفاً فحارس مرمى أحلامى كان اسمه ســــــوء الحظ

كنت قد قررت من قبل أن أنسي أمر الزواج تماماً وأتفرغ لتحضير الدكتوراه وأنزل من فوق شجرة الفتيات اللآتى ينتظرن العدل, فأنا لا أحتاج أن أُكمل زينتى بلقب مدام فلان .

لماذا يسيطر علينا الخوف من العنوسة؟ أعتقد انه موروث قديم، ومن غذاه الرجل نفسه حتى لا ترفض المرأة الزواج ويظل مسيطراً عليها كما يسيطر مدرب السيرك على الفيل

يقوم مدرب السيرك بربط قدم الفيل الصغير بجزع شجرة .. ومهما حاول الفيل الصغير التخلص من الشجرة فلن يقدر على ذلك .. وشيئا فشيئ يعتاد فكرة أن جزع الشجرة أقوى منه

وعندما يكبر ويصير قوياً ما عليك إلا أن تربط خيطً رفيعاً حول قدمه الضخمة وتربطة بشجرة صغيرة ولا يحاول أن يخلص نفسه

كذلك النساء والفتيات فى مجتمعنا إرتبطنا بالرغبة فى الزواج منذ الولادة .. فهى تتزوج أحياناً حتى لا يُقال عانس ولا يجرؤن على المقاومة وتظل خاضعة لزوج يشقيها ويؤلمها حتى لا يقال مطلقة .

قرأت تفسير كلمة الغانية أنها المرأة التى إستغنت بجمالها عن الزينة

او التى استغنت بعز أبيها عن الزوج.

انا سأكون كذلك

لكن لا اعلم لماذا أتألم الآن.. مرارة الرفض تقتلنى كثوب معروض فى فترينة أحد المحال التجارية بيعت كل الثياب من حوله إلا هو برغم قماشه الغالى وأناقته المفرطه

ظلت هيام تبكى طيلة الليل وأبى لأول مرة مصر على الرفض قائلا :

- هيام لسه صغيرة وتستنا أنا اللى غلطت في حقك يا بنتى لما جوزت أخواتك اللى أصغر منك قبلك

– عادى يا بابا كل واحد بياخد نصيبه وبعدين ماهر انسان كويس وخسارة يضيع مننا

ثم ابتسمت واحتضنت هيام قائلة :

– جوزى محدش هيتجوزه غيرى

– لا يا أبلة أنا أصغر منك بكثيرإزاى أعرضك للموقف ده

– إنتى عايزة تكبرينى ولا إيه يا بنت .. طيب أقفى جمبى كده هيقولوا عليا أختك الصغيرة

فزاد بكاء هيام

– يا أبلة إنتى عايزانا بس نوافق ليه.

– كده علشان مبقاش وقفت في طريق سعادة حد منكم

قال ابي :

– مستحيل يابنتى أوافق وبعدين هي لسا عندها مدرسة

– مدرسة إيه يا بابا هي السنة اللى جايه في الدبلوم، تتجوز ونرتاح منها ومن عفرتتها

في الصباح أبلغت أبلة عفت بموافقة أبى وبأننا مستعدين لإستقبالهم ليلاً ..

استقبلت ابلة عفت كلامى بنظرة زهو

أقتحمت وجهى الذى تآكلت تفاصيلة بإبتسامة زائفة قائلة :

– عقبالك.

وبجرأة أكبر على دخول بؤرة أعصابى أكملت:

– متزعليش بكرة ربنا يرزقك بابن الحلال

بحثت بعينى عن مكان لاتقيأ به فلم أجد ..

في المساء تبدل الحال.. بدل أن تتحدث أبلة عفت تحدث ماهر لأول مرة مخاطباً أبى.

الفصل الثالث عشر

ماهر

قال ماهر :-

– يا عمى الموضوع فيه سوء تفاهم ، أمى أفتكرت إن أنا طالب إيد الأنسه هيام.. لكن أنا متقدم لحضرتك طالب إيد كريمتكم الأنسه عزة.

قبل ان استوعب ما يقول ماهر

سمعنا جميعاً زغروطه تنطلق من ناحية المطبخ

كانت هيام تزغرط وهى تحمل الصينية وعليها أكواب الشربات.

تركت الصينية وجاءت تحتضنني ، لم أستطع أن أخفى دموعى وهى تبارك لى .. شعرت بإحراج شديد لأننى فرحت

كان الجميع يتراقصون فرحاً وطرباً , أنا لست كبيره لهذا الحد لكن أن تتزوج كل من هن أصغر منى قبلى فهذا شيئ غريب.

أردت أن أرفض ،أن أحافظ على كرامتى وأقول لكننى لا أوافق على هذا الزواج ولكن خاننى إحساسى بالكرامة

كنت كغريق وكانت كلمات ماهر كنداء أتى من مركب لتخرجنى من بحر لا قاع له

كنت صامته كتمثال من الرخام جاءت هيام وجلست أمامى باسمة لتقص حبل النظرات الساهمه المتصلة بالحائط ..

فيما بعد سألت ماهر لماذا غيرت رأيك وتقدمت لى ، قال لى :

– نظرة انكسار رأيتها في عينيك عندما طلبت أمى هيام

– يعنى اتجوزتنى شفقة !

– هو في حد بيتجوز شفقة، لأ طبعا ..أنا عرفت إن إنتى كبيرة وعاقلة ومثقفة لم تكتفى بالبكالوريوس وحصلت على الماجستير وبتتحملى الحياة الصعبة .

علمت ايضا بعدها بالحوار الذى دار بين ماهر ووالدته, وكيف اقنعها أننى أفضل من هيام .

عاد ماهر من الكويت صفر اليدين بعد أن ضاعت تحويشة عمره بسبب غارة صدام على الكويت.. وتحطم المشروع الذى وضع فيه ماهر كل ما يملك, لم تكن هذه الصدمة الوحيدة التى تعرض لها ماهر في حياته .

كانت صدمته الأولى عندما تخرج من الجامعة الأول على دفعته ،ورُفض تعيينه معيدا في كليته لأن دفعته كان بها أربعة من أبناء أعضاء هيئة التدريس

لذلك سافر إلى الخارج محاولاً أن ينسى مرارة ما حدث.. فبعد القضية التى رفعها على الكلية رفض أعضاء هيئة التدريس الإشراف على رسالة الماجيستير التى كان ينوى أن يتقدم بها

فكانت صدمته شديدة عندما أخبره أحد الأساتذة أن ينسى أمر دراساته العليا إطلاقاً لقد اتفق اعضاء هيئة

التدريس على أنهم لن يعطوه درجة الدكتوراه ولا حتى الماجيستير.

بعد عودته من الكويت خالى الوفاض, تسلم عمله في وظيفة حكومية ذات مرتب محدود وبالتالى فهو سيحتاج إلى موظفة لها راتب يساعده على تكاليف الحياة

بالإضافة إلى تلك النظرة المنكسرة التى رآها في عينى ستجعلنا نرضى بالزواج بدون أي شروط وبدون مهر أو شبكة

ولما سمعه من أمه أننى طيبة وخدومة وست بيت وأحيانا أتحمل هم بيتنا وبيت شقيقاتى عندما تكون أحداهن حامل أو مريضة

أما هيام الدلوعة كثيرة الطلبات التى لا تتقن أي عمل من أعمال المنزل لن تسعده على الاطلاق

إذن هو زواج عقل ومصلحة

جرب ماهر الحب قبل ذلك وكانت صدمته شديدة فأصبح يراه مضيعة للوقت وطريق للتعاسة.

كفر ماهر بالحب تماماً

برغم أنه كانت تغمره ذكرياته معها عندما كان يشرب صوتها كل يوم كدواء له رائحة المسك المعتق ولاتفارقه نظراتها كفراشة هائمة فى بحر من البنفسج كانت نرجسة وحيدة فى بستان حياته لكن النرجس لا يحيا إلا بقرب جدول ماء لذلك تركته ورحلت حين جفت آباره

قلت لماهر:-

- أنا عمرى ما حبيت قبل كده ونفسى أحب وأتحب وأعيش قصة مع الإنسان اللى هرتبط بيه .

ابتسم قائلا :-

- وهو أنا منعتك ! حبينى زى مانت عايزة وإنت وشطارتك تقدرى تخلينى أحبك لو عيشتينى في الجنة

وعملتيلى كل اللى أنا بحبه.. وإطمنى أنا إنسان مخلص بطبعى وعمرى ما هبص لست غيرك .

كان ماهر أبيض البشرة .. ملامحه بهية مشرقة , عيناه واسعتان لونهما مشوب بخضرة وعسلية وفيهما شغف وذكاء , وشنبه وشعره لونهما يميل الى الأصفر الخفيف يجاور اللون الاصفر .. القليل من الشعر الأبيض الذى يزيده بهاء وصفاء .. وفى وجهه الأبيض حمرة خفيفة

ماذا حدث لى أهذا هو الحب الذى يتحدثون عنه هل صرت مراهقة اعد الساعات حتى موعد قدومه ؟ أنتظره فى البلكونه وعندما آراه قادما من أول الشارع المزدحم كُنت ألحظه أعرف كيف يسير بهدوء

أغضب عندما أراه دوما مصطحباً أمه معه .. تشاركنا جلساتنا وحديثنا الذى تستحوذ هى على اكثره،

نظرات ماهر دوماً منخفضة حياءً .. فترة الخطوبة التى لم تكمل ثلاثة أشهر..

لم تتركنا أمه يوماً فيها حتى أيام الزواج الأولى, رفضت ترك الشقة .. لمدة أسبوع كما أقترحت عليها شقيقتها

حتى ليلة الزفاف ظلت ساهرة فى الصالة أمام غرفة النوم .. كنت أذوب خجلاً وحياءً وحباً.

وماهر يُقارب لوح الثلج

هكذا تمت الزيجة ووقعت عقد عبوديتى..

صرت ملك يمين، زوجة بلا حقوق وعليها كل الواجات كضريرة دخلت الحياة الزوجية بلا تجارب ولا خبرات تتحسس جدران سجنها الأبدى وتتحسر على لحاقها بقطار الزواج.

ليتنى تعلمت الكيد ومُحن النساء.. ليتنى استمعت الى شقيقاتى وهنَّ يعطيانى الدروس وخلاصة خبرتهن

كانت امى تنهرهن قائلة :

– دعوها فهى قادرة على ادارة حياتها .

وسارت بنا الحياة هادئه ورتيبة مملة ، كانت كل سعادتى عندما أنجبت أولادى الأربعة .. كانت حياتى تضحيات متتالية منذ أول يوم زواج و خلال عشرين عاماً

عندما ماتت حماتى ظننت أن الحال سيتبدل, لكن ماهر ظل كما هو يعيش فى لوكاندة .. لم يحاول يوماً تحسين دخله،

لم يشترى لى يوماً هدية فى أى مناسبة من المناسبات ،

عندما أحكى له عن أى مشكلة من المشكلات أو أحاول مطالبته بالمزيد .. يخرج ويترك البيت ولا يعود إلا بعد منتصف الليل فيمكنه أن يظل صامتاً بالشهور

ماتت أمى وهى تتحسر على حالى

لم يصحبنى ماهر حتى إلي بيت أبى إلا فى المناسبات الهامة ولم يحاول أن يتعرف على أزواج شقيقاتى لايعرف أسماءهم وعندما يزرننا فى البيت يتركهم أو يجلس صامتاً

لذا قلت زيارات شقيقاتى لبيتى .. وكان وقتى لا يسمح لى بزيارتهن إلا فى اضيق الحدود

لكن الجميع كانوا يلتمسون لى العذر.

هكذا مرت حياتى وأنجبت أولادى الأربعة

وكنت راضيه وعايشه معرفش إيه اللى جرالى الأيام دى.

- إنت سامعنى ولا قفلت السكة ؟ أنا هروح أنام وأكملك بكرة .

الفصل الرابع عشر
نبوية وعباس

تتابعت الليالى والسهرات بين عزه والمتصل الغامض

كانت تحكى له كل شيء.. خناقاتها مع زميلاتها في المدرسة وتلميذاتها ومشاجراتها في الأتوبيس

حتى نبوية وعباس, البواب ومراته أصبح يعرف عنهم كل شيء سمعت منه ضحكة عاليه جداً عندما حكت له قصة نبوية والكباب والساقية .

كان عباس يعمل فلاحاً قبل أن يأتى للقاهره ويتسلم عمله بها كبواب.. وكانت نبويه تحمل له طعام الغداء وتذهب إلى الحقل.

وفى إحدى المرات حملت له الطعام وذهبت تتمخطر ووضعت الطعام على بئر الساقيه, وذهبت لتنادى عباس وكانت فخورة بنفسها لأنها طبخت كباب أحلى من كباب مرات العمدة.

عبثت الماعز بالطعام فسقط الكباب في الماء وبدأ يدور مع الماء .. عندما عادت نبويه بعباس لتريه مفاجأتها نظرت للساقيه

وقالت:

– عباس الساقيه بتطلع كباب يا عباس

نظر إليها عباس وسألها:

– إنت طابخه إيه يا نبويه

– طابخه كباب يا اخويا

– أهو الكباب بتاعك وقع في الساقيه ناولينى العيش وفحل البصل

قابلت عزة ذات مره عباس فوجدته يرتدى جلبابه مقلوباً ويطوف حول العماره تخيلت أنه جن، نادته أشار لها أن تنتظر وأستمر في طوافه عندما انتهى من طوافه سألته :

– بتعمل ايه يا مجنون

قال:

– نبويه بتولد وحالتها متعسره وإحنا سلو بلدنا كده لما تتعسر الحرمه في الولاده نعديها من تحت جمل وجوزها يلبس جلابيته بالمقلوب ويلف حوالين البيت سبع مرات .

– وأنت عملت كده ؟

– أيوه أومال إيه وديتها سوق الجمال وعديتها تحت أجدع جمل فيكى يامصر وادينى بكمل أهوه . أهو بنعمل إللى علينا والباقى على ربنا

– إجرى يا مجنون يا متخلف ودى مراتك المستشفى

نظر إليها غاضباً وتركها ودخل إلى البدروم

دخلت خلفه, وجدت نبويه قد وضعت وليدها.. وسنيه الشغاله تزغرد وتنادى:

– مبروك يا عباس جالك ولد

نظر إليها عباس وقال :

– شفتى بقى يا ست الأستاذه

كانت تتعالى ضحكاته كلما حكت له تلك الحكايات ، كانت أحيانا تسمعه يتنهد وكثيراً يضحك ولكنه دائما ينصت لها مستسلماً لعادة سماعها يومياً كحدوته قبل النوم.

نشأت بينها وبينه رابطة جميلة تمنت كثيراً أن تسمعه وتراه وتعرف من هو ؟

حكت له عن كل ما تعانيه من آلام نفسية وجسدية .

في الصباح أرسل لها رسالة هذا مضمونها..

"الأستاذه الفاضلة.. أنا الشخص اللى بيكلمك في التليفون متستغربيش لكن لو تسمحيلى إنى أساعدك و أكون تحت أمرك , ويشهد الله إننى ليس لى أي غرض.

دا عنوان طبيبة في الغدد الصماء قرأت لها بحث عن علاج بالأعشاب للتغيرات البيولوجية عند المرأة بسبب

تناقص الهرمونات .. أنا حجزتلك موعد الساعة الثامنة مساء الليلة ..

قولى لها فقط عندما تذهبين أنا الاستاذه عزة وهى في انتظارك"

ظلت عزة طيلة اليوم تفكر في هذا الأمر .

من هذا الشخص الذى يعرض عليها المساعدة دون سابق معرفة؟

– يعنى ممكن أكون صعبت عليه

طلبت من زوجها أن يصحبها للطبيبة .. لكنه رفض لأنه مرتبط بموعد سابق لا يستطيع الإعتذار عنه .

تذكرت فجأة أنه لم يذهب معها أبداً لأى طبيب, حتى عندما كانت حامل لم يكن يهتم بها ولا بحالتها الصحية ,بل الأكثر من ذلك أنه لم يتحمل أي مسئولية جهتها أو جهة أولاده .

ذهبت الى أولادها وطلبت منهم أن يرافقونها للطبيب لكنهم رفضوا وإعتذروا بحجج مختلفة .

إرتدت ملابسها ولم تنسي إرتداء الوحدة والصمت قبل ذهابها محملة بأطنان من القلق .

في مدخل العمارة شعرت بالإطمئنان لأن العمارة كلها عيادات طبية

داخل العيادة المكتظه بالنساء والرجال تساقط منها عرقاً غزيراً من جسدها كله كأنها مصابة بالحمى .

فهى المرأة الوحيدة التى جاءت بلا مرافق والتى تعيش وحيدة فى بيت مملوء بالبشر.

كانت تشعر أنها ثمرة فاكهة نُزعت قشرتها وأصبحت معرضة للعطب والتلف , وكشجرة وحيدة تخلت عنها فروعها وتلاعبت بها الرياح

قالت لها الطبيبة :

– فُرضت على المرأة منذ عقود كثيرة ماضية، تسمية سن اليأس، للدلالة على وصولها إلى فترة إنقطاع الطمث لديها. في حوالي الخمسينات من العمر، وأكدت لها وجود الأدوية اللازمة للتقليل والتخفيف من إزعاجات هذه المرحلة.

– المفروض يا استاذة عزة أن المرأة المثقفة أصبحت في يومنا هذا مُحصنة ضد هذه الفترة الحرجة من عمرها، والتي بإمكانها معالجتها بالأدوية الوقائية

وكل هذه الأعراض يمكن تخفيفها عن طريق تناول الأدوية المناسبة التي تطورت جداً و التي تقلل من هذه الأعراض

– المفروض نحول السن دى الى فترة من الأمل والتفاؤل والإقبال على الحياة .. كل عمر وله جماله

وصفت لها الطبيبة علاج من الأعشاب التى تحولت إلى عقار

عبارة عن حبوب من البردقوش وأعشاب أخرى ونصحتها بضرورة قضاء يوم من كل أسبوع في الهواء الطلق بعيداً عن الجدران

والإكثار من تناول الخضروات والفاكهة وشُرب الماء بكثرة ، وطلبت منها عمل تحاليل وفحوصات كثيرة

في المساء

شكرت عزة محدثها الغامض كثيراً .

– أنا عمرى ماحد أهتم بيا كده , طول عمرى وأنا بهتم بالكل أمى وأبويا وأخواتى وزوجى وأولادى

عندى طلب واحد إنى أعرف اسمك لو مش عايز تتكلم إبعتهولى في رسالة .

فـأرسل لها رسالة طويلة ..

" لما سألتينى من أنت تذكرت موقف حدث للفيلسوف الألمانى شوبنهاور .. عندما كان يتجول مفكراً فى الطرقات وأتعبه السير فجلس طويلاً أمام أحد المنازل فشك صاحب البيت فى أمره وطلب الشرطة , وعندما سأله الشرطى من أنت نظر إليه شوبنهاور طويلاً وقال: –

ليتك تساعدنى على إجابة هذا السؤال وسأكون شاكراً لك .. نعم من أنا؟

ولكنى سأقول لكى الشئ الوحيد الذى أعرفه عن نفسي ،

إسمى محمود وعندى ليكى إقتراح إنك تقضى يوم الجمعة من كل اسبوع من الصباح, وحتى المساءخارج البيت.

أخرجى من البيت وأتركيهم يعتمدوا على أنفسهم عائلتك كلهم محتاجين للعقاب , وأكتبى رسالة وضعيها في مكان ظاهر وعرفيهم إنك هتقضى اليوم خارج البيت

وياريت ميكونش في أي طعام بالبيت .. لازم يشعروا بقيمتك .

وعندما يعترضوا قولي لهم إنك هتقضى كل جمعة خارج البيت وإصرفى مصروف البيت كله , إحنا لسه في نص الشهر وشوفيه هيكمل باقى الشهر إزاى.

عندى ليكى برنامج رائع لفسحة يوم الجمعة ، أنا أسف مش هقدر أكون معاكى ولا هكلمك من بكره لأنى مسافر لمده اسبوع

إنت لازم تكونى إنسانة قوية . البرنامج كالآتي هتروحى حديقة الأزهر مكان أكثر من رائع حديقه مميزه الموقع الجميل .. تستطيعين رؤية القاهره من مكان مرتفع .

الخضره و الطبيعه و الهواء الطلق يشعرك بالإنتعاش. مشكلته الوحيده فى الأعياد و عيد الربيع حيث يكون الزحام شديد مما يمنعك من التمتع بشكل جيد . لكن الآن الجو هادئ ولا يوجد زحام .. أو لو حبيتى تروحى الزمالك

فيها حدائق جميلة وعلى النيل .. الزمالك هى ملاذ آمن في القاهرة والسير فى الشوارع في الليل. كما أن هناك المتاجر المثيرة وتوجد أماكن لتناول الطعام في المنطقة .

– حيث مزيج من مصر الغربية، يتم تقديم المأكولات والأسعار معقولة للغاية. جو غير رسمى.

إعادة ملأ مجانية من المشروبات. ولا الفيوم وجمالها كل اسبوع تختارى مكان .. إيه رأيك نبتدى برحلة للأهرام ؟

... وعند عودتى سأتصل بكى "

وصف لها برنامج غاية في الروعة .. بعثت له هذه الرسالة ..

"أهلا بيك يا محمود , يظهر إن إنت فيلسوف لأن الفلاسفة فقط هم من يبحثوا عمن يكونوا, تشغلهم حقيقتهم فيفتشواعنها, وهم دائموا الاسئلة .

معقول مصر فيها الأماكن الرائعة دى ...!

عموماً إن شاء الله هنفذ البرنامج والخطة اللى إتفقنا عليها, وفعلاً مصروف البيت كله هيروح للتحاليل والفحوصات هشترى بس بالباقى طقم عملى وحذاء مريح علشان خروجة يوم الجمعة "

رد عليها برسالة..

" دا عنوان مدام نانى, عندها مركز تجميل ومحل ملابس ، أنا ممكن أترك لك عندها مبلغ وأعتبريه سلفة "

ردت قائلة

"لأ طبعا لا تترك أى مبالغ أنا بشكرك جداً , أنا هتصرف في موضوع الفلوس ده"

نفذت عزة الخطة . كانت كل يوم تخرج عصراً ولا تعود إلا في العاشرة مساء إما عند الطبيبة أو عند مدام نانى..

في رسالة لمحمود كتبت ..

"مدام نانى دى طلعت حكاية دى عندها كل شيء ملابس وكوافير وجيميبنازيم .. أنا لما عملولى ساونا وحمامات زيت وكريم حسيت إنى مكنتش عايشه "

عندما جاء يوم الجمعة خرجت والجميع نيام وتركت لهم ورقة على بابا الثلاجة كتبت فيها :

– سأقضى طيلة اليوم خارج المنزل إتصرفوا في أكلكم وشربكم ، عايزه لما أرجع الاقى البيت نظيف والا هيكون في عقاب للمقصرين .

عند عودتها في المساء وجدت الجميع في إنتظارها كانوا يتحدثون في صوت واحد .. لم ترد عليهم ،

تركتهم وأخذت حمام وشربت نسكافيه ودخلت لتنام بعد قليل وجدتهم حولها جلست في فراشها قائلة :

- خير

قال زوجها :

– معناه إيه اللى حصل النهارده ده !

– عادى زهقت منكم ومن البيت . والدكتوره نصحتنى أغير جو . خرجت أشم الهوا وطلعت رحلة

– وليه مقلتليش ؟

– تركت لكم ورقة

– أنا من حقى أعرف إنتى فين

– طبعاً دا حقك .. بس إنت اتنازلت عن الحق ده, ولا إنت نسيت لما كنت أقولك هروح أوأعمل .. تقول لى أنا واثق فيكى ومش عايز أعرف تفاصيل أي حاجة .. إيه الحكاية مش عارفين تعيشوا يوم من غيرى .

قالت إيمان بغضب

– ماما إحنا طول اليوم مكلناش إلا عيش وجبنة ،

فردت عزة ببرود

– ومش مكسوفه وإنت طالبة في الجامعة تقولى كده ! من بكره في أوامر جديدة وقواعد هعلقهالكم على باب الثلاجه . وإنت يا ماهر إتصرف في فلوس لأن مصروف البيت خلص .

– خلص ازاى ؟

– خلص أنا تعبانه وبتعالج وطول عمرك مبتحبش التفاصيل .

– وأتصرف إزاى

– أنا بقالى 20 سنه بتصرف, بترميلى نص مرتبك ومبتسألش عن أي شيء.. أتصرف إنت مره ..

ومن أول الشهر لازم تضاعفلى المبلغ اللى بتديهولى .. دلوقتى عايزه أنام عندى شغل الصبح

– لازم نتكلم يا هانم إنت عارفة أنى مش خبير فى الأمور.

– دى فعلاً حقيقة إنت مش خبير فى أى شئ , عارف؟ لفظ خبير بيطلق على رجل إرتكب الكثير من الأخطاء وتحمل الكثير من المسئوليات

ماهر اسمعنى ..

ياريت تتخلى عن نرجسيتك دى وتفكر فى غيرك شوية زى ما بتفكر فى نفسك, ده بيتك ودول أولادك.

رفع ماهر صوته :

– نرجسيتى يعنى إيه نرجسيتى أنا نرجسي يا عزة؟

– مش عارف يعنى إيه نرجسي أقولك يا سيدى الشخص النرجسي هو الشخص اللى عنده العقدة النرجسية

وده نمطً من أنماط البشر عاش وما يزال يعيش حتي الآن، وهو الشخص الذي يعجب بنفسه ويعتز بها لدرجة تنسيه إعجاب الآخرين به، وتنسيه أيضًا حبه وإعجابه بالأخرين، والذي يؤدي في النهاية إلي انسلاخ الشخص

رجلاً كان أو امرأة عن المجتمع الذي يعيش فيه ويكون نهايته حينئذ الموت أو الفناء.

لم يستطع ماهر الرد . أصابته صدمة جعلته يصمت ويفتح فمه مذهولاً لم يتخيل يوماً أن تُحدثه عزة بهذه اللهجة وتسمعه تلك الكلمات .

شعرت عزة بالندم ولكنها كانت سعيدة لأنها لأول مرة إستطاعت مواجهة ماهر بحقيقته

فى الصباح وجدت أروى إبنتها تناديها صارخة :

– ماما مغسلتليش لبس المدرسه ليه ؟

وإيمان :

– يا ماما زراير البلوزه كان المفروض تركبيهم .

ومصطفى ومحمد :

– عايزين فلوس.

لم ترد عليهم وعلقت ورقة على بابا الثلاجة وتركت المنزل وخرجت ..

جرى الجميع ناحية الثلاجة وبدأوا بقراءة التعليمات

" من اليوم كل واحد مسئول عن نظافة حجرته وملابسه .. ملابس الأسرة تُغسل مرة كل أسبوع واللى عايز حاجه في نص الاسبوع يغسلها هو ، وكل واحد يكوى ملابسه، يوم الجمعة يتعاون الجميع على إعداد الطعام وتنظيف الصالة والحمامات .. لأني لن أكون بالمنزل كل جمعة ..

دا جدول بكل أعمال المنزل المطلوبة منكم

.. غسيل الاطباق وتنظيف الصالة والحمامات ..

أي فلوس او التزامات اطلبوها من بابا "

قال ماهر:

– دى اكيد اتجننت

جلس الاولاد صامتون ترى ماذا أصاب أمهم ؟

بكت أروى ..

سألوها بتعيطى ليه؟

قالت

– أكيد ماما تعبانه جداً وإحنا كلنا أهملناها حد فيكم سألها هي عيانة عندها إيه ؟

ولا فكر يديها دوا أو يروح معاها عند الدكتورة . حتى أنت يا بابا بتعمل فيها كده

قال مصطفى :

– فعلا إحنا ناس مش كويسين . ماما طول عمرها زى الشمعة اللى بتتحرق علشان تنورلنا, إحنا لازم كمان نساعدها

إيمان :

– وهنساعدها ازاى ؟؟؟

-أولا ننفذ الجدول اللى طلبتوا مننا ولازم نتطمن عليها ونتابع صحتها .

إيمان :

– إنت ناسى دراستنا ؟

– الحجات المطلوبه بسيطة, كل واحد فينا هيشتغل ساعتين أوتلات ساعات كل اسبوع.

أما ماهر فقال:

– وأنا هجيب فلوس منين أكمل باقى الشهر

– إتصرف يا بابا

قال محدثا نفسه :

"إزاى عزه كانت معيشانا لمدة 20 سنة وأنا كنت رامى كل الحمل عليها, فعلاً لازم أعوضها "

إن كلمة شفقة فى اللغات المنحدرة من أصل لاتينى تعنى أننا لا نستطع مشاهدة عذاب الآخر بقلب بارد, بل يجب أن نتعاطف معه..

أما كلمة الرأفة فهى تعنى التسامح مع من يتألم,

أن تشعر بالرأفة تجاه إمرأة تتألم ذلك يعنى أنك أوفر حظاً منها وأنك تنحنى نزولاً لمستواها.

هذا الشعور الذى وُلد بداخل ماهر لم يكن يُعبر عن حبه لعزة فهو شعور أقل من الحب.. وإن شئت الدقة فلا علاقة له بالحب إطلاقاً, لكنه أقصى ما يمكن أن يؤديه رجل لإمراة تتألم, إمرأة شاطرته نصف عمره وأعطته كل شئ .. هو القدرة القصوى لفن التخيل العاطفى والتقدير .

ليس حباً أن يسامحها على ما فعلت من تغيير فى حياتهم وتركها للبيت دون إذنه, لكنه شعر بآلامها ووحدتها التى سببت لها المرض

عندما عادت إلى البيت وجدته مرتباً ونظيفاً ..

سألها ماهر :

– ممكن تكلمينا يا عزة ليه وصلتى ووصلتينا للعند ده .

قالت :

– تعالوا يا أولاد هحكى لكم حكاية

" كان فى واحد بدوى بينقل حياته من مكان لمكان فجاء بجمله وبدأ بتحميل كل أمتعته على ظهر الجمل وكل ما يتذكر شئ يحمله ويضعه على ظهر الجمل والجمل لا يتحرك ثم تذكر البدوى ريشة طائر جميلة كان والده قد أعطاها له فبحث عن الريشه ثم أحضرها ووضعها على ظهر الجمل فسقط الجمل ميتا فى الحال.

تعجب الأعرابي وقال هل من المعقول أن تقتل هذه الريشة الجمل "

قال ماهر:

– يعنى ايه؟

– ممكن شئ بسيط جداً يكسر ظهر الجمل ونقطة ماء تجعل كأس المعاناة تفيض.

تركتهم ودخلت غرفتها .

إحتضنتها أروى وذهبت معها إيمان في المساء عند طبيب الاسنان

حكت لمحمود كل شيء في رساله

يوم الجمعة خرج الجميع معها لقضاء اليوم في الهواء الطلق أقترب منها ماهر جداً فحكت له عن مشكلتها الصحية , لأول مرة يستمع لها ولا يتضجر ..

الفصل الخامس عشر

محمود ناجى

فى الصباح وجدت رسالة من محمود يخبرها أنه سيذهب إلى ميدان التحرير يوم 25 يناير إذا أرادت مقابلته فستراه هناك.

كانت تتابع أخبار الثورة على شاشة قناة الجزيرة

ذهبت هي وأولادها يوم 28 يناير ولم تغادر الميدان إلا يوم التنحى .. عاشت هي وأولادها تلك الفترة في الميدان كانت تشعر بحالة من الرعدة تشبة السعادة .

لا بل كانت سعيدة بالنوم في العراء, لم تشعر بالبرد ولم تخف من أي شيء, فكل الموجودون حولها في الميدان أخوتها أو أولادها

كانت تتجول داخل الميدان وبيدها كاميرا هاتفها تصور كل شئ.

بل أنها اظهرت جسارة فائقة يوم موقعة الجمل, وإقتربت من حدود التشابك والتقطت صور بكاميرا ديجيتال أهداها ماهر إليها عندما علم بحبها للتصوير .

كانت تلك الكاميرا أول هدية يشتريها لها ماهر.

قابلت الكثير من تلاميذها فى الميدان إستمعت إلى معاناة الشباب الذى كان في طريقه إلى الضياع .

تعرفت بكل مصر.. كانت مصر في الميدان.. مصر الفلاحة والصعيدية .. مصر البامبوطية.. مصر الحرفية مصر العشوائية والغوغائية.. مصر المثقفة والمثالية.

كان الميدان وكعكته الصخرية هو مصر بكل ما فيها من جمال, جعلها جمال المصريين تنسي آلامها ومعاناتها النفسية .

وتذكرت معاناة الشعب المصرى كله .عاشت أيام لا تأكل هي وأولادها إلا الخبز الجاف والجبن أو علب كشرى التحرير.

كان لا بد أن يُطَلِقْ ذلك الحاكم مصر .. أن يتركها تقرر مصيرها.. فمصر إمرأة لا يمكن أن تحيا فى ظل زوج واحد.

كانت تتابع الشباب وأناشيدهم ونكاتهم التى تعبر عن الشعب المصرى حتى في أحلك الظروف – هذا الشعب العريق عراقة الأهرامات, الكريم كرم النيل .عندما يؤذن المؤذن كانت تأتى سيلفانا صديقه إبنتها إيمان تحمل لهم ماء الوضوء وتفرش لها الأرض هذه الفتاة علمتها أن التعصب للدين لا يجوز

بعد الصلاة قَبْلت سيلفانا

قالت لها :

– هل نسيتى يا مس عزة عندما كرمتى المتفوقات وكانت الجائزة القرآن الكريم وكنت أنا المسيحية الوحيدة أشتريت لى نسخه من الإنجيل وأعطيتنى أيضا المصحف وكنت تهدينني كل عام فانوس رمضان .. أنتِ من علمتنى البعد عن التعصب وسماحة الإسلام.

كانت الشوارع مغطاه بالشعارات واللافتات المعبرة عن الحنق والغضب .

الآف الملصقات المرسومة باليد والمرفقة بعبارات تهكمية وقصائد الهجاء ورسوم كاريكاتيرية

لكنها كانت دوماً تبحث عنه عن محمود بائع أحلامها المتجول في كل مكان حتى بعث لها رسالة ..

يخبرها فيها أنه مصاب في القصر العينى وسيسافر خارج مصر لإجراء جراحة ويريد أن يراها قبل السفر.

ذهبت إلى المستشفى تحمل قلبها المرتجف قلقا عليه . أرشدتها إحدى الممرضات إلى سريره الصغير . وأرشدها قلبها إلى إبتسامته الحانية ووجهه الذى طالما إنتظرت رؤيته ..

وجدت محمود شاب صغير لم يكمل الثلاثين من عمره يبتسم إبتسامة صغيرة رغم الضمادات التى تحيط بوجهه

– أهلا بك يا استاذه عزه

ضحكت وبكت عانقت عيناها ملامح وجهه

– إنت محمود ! أنا عزه الكبيره إتعملت منك حاجات كثيره جداً, إتعلمت منك ضرورة إنى أثور ومسيبش حقى ومرضاش بالظلم

– وأنا اتعلمت منك الإحترام والتضحيه بدون إنتظار المقابل, عارفة أنا شبهتك بمصر اللى دايماً تعطى وتضحى, وجربت الثورة في بيتكم الصغير ولما نجحت ثورتك قلت أكيد هتنجح في مصر كلها.

– عارف أنا كنت بصبر وبسكت علشان ميكونش إنشغالى بنفسي سبب فى ضياع الخير اللى عملته طول عمرى .. كانت أسرتى أجمل من إنى أحطمها علشان نفسي

– لكن مصر يا أستاذة أولادها قاسيين جداً عليها وقاسيين على الضعيف فيهم, البلد أوشكت أنها تتحول لغابة ، الناس فيها بتاكل بعضها

– لكن إنت كنت أقوى منى بأفكارك وكنت واثق إنى هنجح

– عارفه يا استاذه لما سألوا النحات مايكل انجلو إزاى بيعمل تماثيله قال :

" عندما أنظر إلى كتلة من الحجر أرى التمثال بداخلها كل ما أصنعه بعد ذلك هو إزالة الأشياء غير الضرورية المحيطة بالتمثال"

– وأنا تخيلت حياتك وأسرتك كده شفت أسرة مثالية بس مُحاطة بكم كبير من الأنانية واللامبالاة والإهمال فساعدتك على ازالة الأشياء دى من أسرتك ولما أُزيلت شفنا مثال رائع للأسرة الجميلة السعيدة .

دخل الطبيب فاضطرت عزة للإنتظار فى خارج الحجرة

كانت عزه تحمد الله أنها لم تتعرف على شخص فاسد يستغل مشاكلها أو شخص تنجرف خلفه وتعيش معه مراهقة تقضى على ماضيها وتدمر أسرتها .

بعد خروج الطبيب عادت إلى محمود فوجدت الإبتسامة تعلو وجهه وقال :

– لابد أن أصارحك بشئ يا أستاذة

– أنا شفتك كثير قبل كده .. كنت موجود لما إشتريتي المحمول والخط .. أنا كنت ناوى أخد الخط ده لأن رقمه زى تاريخ ميلادى

ودى ما كانتش أول مره أشوفك فيها

فاكرانى ؟؟

أنا تلميذك محمود ناجى اللى كنت خايب في الرياضة وفضلتى تديه دروس 3 سنين بدون مقابل, أبويا الحج ناجى غانم صديق والدك وكان فى شبابه ساكن جنبكم فى الموسكى .

تذكرته عزة الآن ..

– نعم نعم محمود إنت محمود معقول شكلك اتغير

ازى والدك ووالدتك أخبارهم إيه .

– الله يرحمهم ماتوا وسابونى وحيد.

أنا الآن حاصل على دكتوراه في الهندسة .. ولى ثأر شخصى مع النظام السابق في مصر لأنه حطم مستقبلى ومنعنى من التدريس في الجامعة لأن لى نشاط سياسى وأفكار احملها معى دوما كما تحمل السلحفاة بيتها .

وللاسف أقنعت والدى بتصفية تجارته وعملت مع والدى مصنع للحديد والصلب قفلهولنا النظام واستولوا عليه . ومات والدى بحسرته .

طب ليه مكنتش بترد عليا وتعرفنى أنت مين ؟؟

- أنا فعلاً لما شفتك كنت عايز أكلمك وأعرفك بنفسى .. وكل مره كنت بتصل علشان أكلمك وأعرف إنت ليه

شكلك مرهق وتعبان وليه دايما حزينة , لكن كنت بتكسف , إنت استاذتى

– اللى جايه دى خطيبتى هي كمان مذيعة رفدوها من شغلها لأنها رفضت تخلع الحجاب .

سلمت عزة على مها خطيبة محمود ..

– إدعيلى يا استاذه عندى رصاصه عشريه في عينى مش راضيه تطلع أبدا , ذكرى من النظام القديم

كانت عزة تبكى..

– خلى بالك من نفسك يا محمود وأنا هدعيلك دايماً , كلمنى أنا هنتظر تليفونك كل ليلة

تركته وقد وعدته بأنها من الآن ستحيا حياة متعقله يتخللها الجنون.

حياة مليئه بالعطاء المشوب بالانانية . بالكرم المحمل ببعض البخل أحيانا.

كانت فكرة أنها لا تستطيع فعل شئ من أجل محمود تغرقها فى الذهول وتهدئ من روعها فى آن واحد.

خرجت إلى الشوارع مفعمة بالكآبة التى تزداد حلاوة ترى حياتها الآن بمنظور مختلف

كانت تستنشق عبير الحرية فى كل مصر .. فبراير السعيد

حقا هو أجمل فبراير مر بحياتها .. الآن كل التعب تلاشي ولم يبق إلا الحلاوة.

مرت بمجموعات من الشباب ينظفون الميدان وجدت إيمان ابنتها معهم رأتها تتحدث مع أحد الشباب وهم منهمكون فى طلاء أحد الحوائط

كانت إيمان ترسم علم مصر عندما رأت أمها جرت إيمان ناحية أمها والحماسة والفرحة تفيضان من وجهها

عرفتها إيمان بالشاب الذى معها :

– عاصم يا ماما اللى كلمتك عنه بالليل

صافحها عاصم قائلا :

– ممكن يا طنط أزوركم الليلة أنا ووالدتى علشان نخطب إيمان.

علمت الآن سر سعادة إيمان وحمدت الله أنها لن تمر بفترة انتظار ابن الحلال

هزت رأسها قائلة:

– تشرفونا يا عاصم هنستناكم.

قبلت إبنتها وغادرت ميدان التحرير متوجهه إلى متجرها بالموسكى, متجر الطويل الذى سيبقي يحمل اسم والدها كما وعدته يوم وفاته.

كانت تتعجب من أمرها لم تهتم يوما بالسياسه حتى نشرة الأخبار لم تكن تشاهدها .. تؤلمها أخبار الحروب والزلازل والحوادث والنكبات .

أمضت نصف عمرها فى عطاء لماهر وأولاده,

ماهر الرجل الوحيد فى حياتها الذى أحبته ولم يبادلها حبا كأنما وجب عليه دوماً أن يخفى أمراً ما وأن يتكتم

لم يهتم أبداً بمواساتها بأن يرفع معنوياتها بأن يثبت لها حبه, بأن يتلقى ملامات, غيرتها, وألمها, وأحلامها,

كانت تنتظر أن يشعر بالذنب, أن يعتذر, أن يبرر نفسه, أن يراها .

آه لو رآها ..

قال لها محمود ذات يوم :

– الثورة مثل بكاء الأطفال .. الثورة تعبير عن شعور بالألم لا نستطيع التغلب عليه, البكاء معناه أنك حر وأنك حى .. إعلمى أن مرادف كلمة حى هى كلمة حر .فلا حياة بلا حرية ..الحرية هى تنفس الروح .إبكى اصرخى إصنعى جلبة وفوضي كالتى يحدثها الطفل الغاضب .

قرر ماهر لأول مره فى حياته أن يحسن دخله.. فقد إقترب موعد خروجه للمعاش .

لذا إفتتح مكتبة فى أحد الشوارع القريبة من ميدان التحرير وجعل بها جزء لبيع الأدوات المدرسية وتصوير الأوراق وقام بإستخراج التصاريح اللازمة لإنشاء دار نشر.

الأكثر من ذلك أنه قرر نشر أوراقه .. كان ماهر وعلى مدار عمره يكتب مذكرات وأبحاث عنده مخزون يصلح لنشر أكثر من عشر كتب .

الجمود الذى أصابه طيلة عمره الآن قد زال عنه وصار شخصاً آخر دبت في جسده روح الثورة فأيقظت حواسه النائمة .

عادت الدماء تسير فى عروقه فأعاد لعزة حياتها .. كان يدخل البيت فيشعر أنه يراها لأول مرة .يشارك أولاده مشاعرهم وانفعلاتهم.

فى يوم عيد ميلاد عزة قرر هو وأولاده الإحتفال بعيد ميلادها وقام بنفسه بالإتصال بشقيقاتها وشراء التورته

والجاتوه وإستقبل الجميع ببشر وترحاب لم يألفوه منه من قبل.

كان فرحا بحمل عزة الجديد يضع أذنه ليسمع نبض الصغير.

أمس أتصل محمود .. برغم كل ما مر بهما معاً كانت تلك أول مرة تستمع عزة لصوته في التليفون .

كان سعيداً بعودته إلى مصر .. وقد خرجت الرصاصة من عينه التى فقدها سعيداً لأنه ضحى بشئ غالى في سبيل حرية الوطن.

سألها محمود:

هل تواظبي على علاجك ؟

– أنا وقفت العلاج خالص

– معقول ! ليه كدا يا استاذة !؟

– لأن أنا حامل

ربنا أراد أن يولد محمود الصغير ابنى في العهد الجديد

– إيه الأخبار الحلوه دى . وصحتك عامله إيه ؟

– الحمد لله زى الفل

ماهر والأولاد بيعملوا كل شغل البيت وانا فى أجازة المدارس وبحاول اعيش بعض اللى فاتنى

– وإنت أخبارك إيه يا محمود ؟

– لسه يا أستاذة لسه الثورة مستمرة

وهنفضل كده لحد ما تتحقق كل مطالبنا ويحكمنا لأول مرة رئيس مصري مُنتخب .. هنفضل نكافح لحد ما يتحقق ده ويتولد إبنك في أمان في العهد الجديد.

تمت بحمد الله

الشرقيه فى ٨ أغسطس ٢٠١٢

منى سليمان مراد

من مواليد محافظة الشرقية

ليسانس أداب لغة عربية

دبلوم عام فى التربية

دبلوم معهد الدراسات الإسلامية والدعوة

تعمل بالصحافة ووزارة التربية والتعليم

عضو إتحاد كُتاب مصر

عضو نقابة المعلمين المصرية

عضو بالمنتديات الأدبية

لها كتابات عديدة فى القصة والشعر

لها لقاءات عديدة بالإذاعة والتليفزيون

صدر لها ...

رواية دموع الياسمين

رواية بائع الأحلام المُتجول

رواية رجل من درب التبانة

رواية وعد ومكتوب

رواية عائد من مواكب الراحلين